مطبوعات أخبار اليوم
قطاع الثقافة

المرأة فى الإسلام

الشيخ محمد الغزالى
د . محمد سيد طنطاوى
د . أحمد عمر هاشم

مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف: ٢٤٤٦٠٣٣
ترخيص رقم : (٧١)

المرأة في الإسلام

٢١٠,٤
م ٢ ع ٢ م

الشيخ محمد الغزالي
د. محمد سيد طنطاوي
د. أحمد عمر هاشم

أخبار اليوم إدارة الكتب والمكتبات

الغلاف بريشة : سيد عبدالفتاح

بسم الله الرحمن الرحيم

. . . يا صفية عمة رسول الله . . ويا فاطمة بنت رسول الله :
« اشتريا أنفسكما من الله ، فإنى لا أغنى عنكما من الله شيئا » .

كان هذا النداء تلبية واستجابة لنداء عال حمله جبريل من الملأ الأعلى ليقول للنبى صلى الله عليه وسلم : « وأنذر عشيرتك الأقربين » فينهض ـ عليه السلام ـ من فوره ويصعد إلى جبل الصفا ليبلغ كلمة الله إلى الناس فينادى : يا بنى عبدالمطلب اشتروا أنفسكم من الله . . يا صفية عمة رسول الله . . يا فاطمة بنت رسول الله . .

وهذا الكتاب الذى يتحدث عن المرأة فى الإسلام ، والذى يقدمه الداعية الإسلامى الكبير الشيخ محمد الغزالى والدكتور محمد سيد طنطاوى مفتى الجمهورية والدكتور أحمد عمر هاشم أستاذ مادة الحديث الشريف فى جامعة الأزهر . . هذا الكتاب يضع أمام القارىء ـ وفى ضوء القرآن الكريم والسيرة النبوية والسنة المطهرة ـ مدى الحفاوة والرعاية اللتين خص الإسلام بهما المرأة : أم الرجل وبنته . . وزوجته وأخته . . وقبل ذلك وبعد ذلك نصفه الآخر الذى به يكتمل ويتكامل ليكونا معا : الإنسان . . خليفة الله على الأرض .

مكتبة أخبار اليوم الإسلامية

في ضوء السيرة النبوية

- هكذا كان .. قدرها !!
- في الجاهليات .. القديمة !!
- زوجات الرسـول ..
- في العلم .. والأدب
- ماذا تفعل .. نساؤنا ؟

يكتب هذا الفصل

الشيخ محمد الغزالي

كلما رجعت إلى السيرة النبوية ازددت معرفة بما كان للمرأة من مكانة ، وبما كفله الإسلام لها من حقوق ، لقد كانت لها شخصية مقدورة وأثر يحسب !

يقول المحدثون : لما نزل قول الله لنبيه « وأنذر عشيرتك الأقربين » صعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الصفا ونادى : « يا بنى عبدالمطلب اشتروا أنفسكم من الله ، يا صفية عمة رسول الله ويا فاطمة بنت رسول الله : اشتريا أنفسكما من الله فإنى لا أغنى عنكما من الله شيئا ، سلانى من مالى ما شئتما » .

إن نداء المرأة بهذا الصوت الجهير شيء مستنكر فى عصرنا الأخير ، كنا نعد اسمها كشخصها عورة لا يجوز أن يعرف !! ونقول : ما للمرأة وهذه الشئون ؟ يكفى أن يحضر رجل من أسرتها ليبلغها ، أما أن تنادى على رؤوس الأشهاد فذلك عيب !

لكن المرأة فى صدر الإسلام عرفت قدرها ، ولما سمعت مناديا يدعو إلى الإيمان سارعت إلى تلبيته .

ويحكى المؤرخون أن أخت عمر بن الخطاب كانت أسبق منه إلى الإسلام ، لقد أدمى وجهها عندما علم بإسلامها وهاجها بقسوة فقالت له : يا عمر إن الحق فى غير دينك ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ! ثم أسلم عمر بعد !!

ودخل الرجال والنساء فى دين الله ، وأعطوا المواثيق على اعتناق الحق والعمل به والذود عنه ، وانتظمت الصفوف فى المسجد النبوى تستوعب الرجال والنساء على سواء .

روى مسلم عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت : « ما أخذت « ق و القرآن المجيد » إلا من لسان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم الجمعة يقرأ بها على المنبر فى كل جمعة » .

أى أنها حفظت السورة كلها عن ظهر قلب من شدة انتباهها وهى تسمع الخطبة !

وكانت سنة رسول الله فى الخطابة أن يتلو القرآن الكريم وحسب ! وهى سنة مهجورة الآن ، كما أن من السنن المهجورة حضور النساء الجمع والجماعات . . ألا يثير ذلك شيئا من التساؤل والدهشة ؟

ومن الطرائف أن امرأة كريمة موسرة كانت تصنع وليمة بعد الجمعة يحضرها من شاء ، روى البخاريّ عن سهل بن سعد قال : « كانت منا امرأة تجعل فى مزرعة لها « سلقا » فكانت إذا جاء يوم الجمعة تنزع أصول السلق فتجعله فى قدر ثم تجعل عليه قبضة من شعير بعد أن تطحنه ، فتكون أصول السلق عرقة - مرقة - قال سهل : كنا ننصرف إليها من صلاة الجمعة فنسلم عليها ، فتقرب ذلك الطعام إلينا ، فكنا نتمنى يوم الجمعة لطعامها ذلك ، ولم يكن فى الطعام لحم ولا دهن . . » .

هذه امرأة مؤمنة سمحة تدخل السرور على الناس بما آتاها الله من فضله ! ولوفعلت ذلك فى عصرنا لأنكر المتزمتون عليها ! ولقال كل جرىء على الفتوى : كيف يُلقى عليها السلام ؟ وكيف تردّه ؟ وكيف تلقى الضيوف ؟ إلخ .

إن تقاليد المسلمين فى معاملة النساء لا تستند إلى كتاب أو سنة . . وقد نشأ عن ذلك أن المثقفات فى العصر الحديث تجهّمن للتراث الدينى كله يحسبنه السبب فى تجهيل المرأة ، وهضم مكانتها ، وإنكار حقوقها المادية والأدبية التى قررتها الفطرة وأكدها الوحى وبرزت أيام حضارتنا واستخفت مع انتشار القصور وغلبة الأهواء .

هل دلل الإسلام المرأة ؟

قالت إحدى النساء : إن الإسلام هضم المرأة إذ جعل الرجل قادرا على تطليق زوجته متى شاء ، إن هذه القدرة المتاحة له سيف مصلت على عنق المرأة يهددها ويذلها !

قلت : يمكن فى المقابل أن يزعم الرجل بأن الإسلام دلّل المرأة ويسرّ لها التمرد إذ أباح لها مخالعة الزوج وترك البيت عندما تشاء !

إن تصوير أحكام الأسرة وحدود الله داخل البيت المسلم لا يسوغ أن يقع في هذا الإطار المتوتر الخانق، ويبدو لي أن تقاليد الشرق، والأعراف الشائعة فيه من وراء هذا العوج الفكري..

فالرجل ربّ البيت والقيم على الأسرة، بيد أننا في أغلب الأحيان نظن الرياسة لونا من الفرعونية أو الانفراد بالسلطة فلا تفاهم ولا شورى! الرئيس لا يعترف برأي آخر ولا يكترث بإرادة أخرى!

وهذا الفهم لمعنى الرياسة أسقط الشرق سياسيا واجتماعيا، وأضر بالدول والبيوت على سواء.

إن الرياسة الصحيحة عبء زائد، ومسئولية أثقل، وهي في البيت الإسلامي تتمة لجملة من الحقوق والواجبات المتبادلة كما جاء في الآية الكريمة: «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة».

وأساس التعامل الخلق الزاكي، والحب السيّال، والإيثار الذي يرجح الفضل على العدل، والترفع عن ملاحظة الصغائر! ومن أدب العرب في بناء الأخلاق وتقويم السلوك قول الشاعر:

ولا خير في حُسْن الجسوم ونبلها إذا لم تَزِنْ حسن الجسوم عقول!
ولم أر كالمعروف، أما مذاقه فحلوٌ، وأما وجهه فجميل!
ذريني فإن الشح، يا أم هيثم لصالح أخلاق الرجال سَروق!
لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق!

وقد لاحظت في سورة النساء الصغرى: «الطلاق» أن الإسلام شديد الحرص على مزج التشريع بالتربية الأخلاقية، والأحكام العملية بالآداب النفسية مثل «سيجعل الله بعد عسر يسرا» ومثل «من يتق الله يجعل له من أمره يسرا» ومثل «من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا» والويل للبيوت إذا تركت منطق الدين والخلق واتجهت إلى القانون والقضاء..

إن المجتمعات في الشرق والغرب اعترفت بأن الطلاق قد يكون ضرورة نفسية واجتماعية، وأنه ليس سوطا في يد الرجل بل قد يكون فكاكا لإسار

المرأة . وأعرف أسرا إسلامية جعل الدين أفرادها جسدا واحدا فما يَعْبُرُ الطلاق بخاطر أحد ! إن تماسكها أمتن وأزكى .

ولكن الأمة الإسلامية فى أيام اضمحلالها العقلى والنفسى نسيت وظيفة الأسرة وتنشئة الأولاد وبناء المستقبل على الحاضر ، وربما علّق أحد الناس مستقبل بيته على رطل لحم يرفض شراءه ! فيحلف بالطلاق على ذلك !

ماذا نقول إلا ما قاله الله فى هذه الأحوال وهو يختم سورة الطلاق « وكأين من قرية عتتْ عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا ، وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا » .

باسم الإسلام .. المفترى عليه !

خطر لى أن أعرف المستوى الثقافى للمرأة المسلمة فى صدر الإسلام ، وقبيل شروق شمسه !

إن الثقافة الغزيرة تعين الرجل والمرأة كليهما على ضبط الحقائق وإحسان الحكم على الأمور والإشراف على تربية الأجيال الناشئة تربية مثمرة مجدية .

وقد رأيت الابتعاد عن المصادر المتهمة والاتجاه إلى الشعر ـ وهو ديوان العرب ـ لأتحسس سيرة المرأة وخلقها وموقفها من القيم السائدة فى المجتمع ومدى وفائها للفضائل الإنسانية على الإجمال !

ووقع فى يدى ـ على غير تعمد ـ ديوان الحماسة لأبى تمام ، وشرعت أقرأ باب الرثاء ! فوجدت مراثى حارة لنساء كثيرات يبكين فيها أحباءهن ، ورأيت أن أختار منها أولا هذه الأبيات لعمرة الخثعمية بعد أن فقدت ابنيها ، فأخذت فى سرد مناقبهما ، قالت :

هما أخوا، فى الحرب، مَنْ لا أخا له ... إذا خاف يومًا نَبْوَةً فدعاهما !!
هما يلبسان المجْد أحسن لبسة ... شحيحان ما استطاعا عليه كلاهما !!
شهابان منا أوقدا ثم أخمدا ... وكان سَنىً للمدلجين سناهما !!
إذا نزلا الأرض المَخُوفَ بها الرَّدَى ... يُخَفِّض من جأشيها مُنْصُلاهما !!

.... الخ ..

والمنصل : النصل تعنى السيف ، والأم الثاكل تفخر بشجاعة ولديها فى وجه الحتوف ، وتتحدث عن المجد الذى حققاه فى حياتهما ، وعن فضائل البذل والإيثار والاستعفاف التى توفرت لهما .

وفقدان أم لولديها معا خطب فادح ، لكن العجيب أنها تحيّى فى ابنيها الشرف والكرم ، ويغلبها ذاك على حزنها .. ترى هل المرأة العربية اليوم على هذا المستوى فى الوعى والسلوك والكفاح ؟

ولقد كانت قبل الاستعمار الحديث أمية لا تقرأ ولا تكتب ، وفرضت عليها هذه الأمية باسم الإسلام المفترى عليه ! فلما اجتاحت بلادنا الحضارة المادية المعاصرة ، فتحت أبواب المدارس للمرأة ، فلم تتعلم فيها حقائق التراث الغالى ومناقب المرأة فى عصرها الأول .. كلا لقد غزا عقلها الفكر الأوربى ، ونهجه الشارد ، فإذا نحن أمام تقاليد لا تسرّ ومناهج لا تنفع بل قد تضر !!

والسبب هو القصور العلمى الذى بلغ مرتبة الجهل المركب عند بعض الإسلاميين المتحدثين عن موقف الإسلام من المرأة . والصائحين بأصوات منكرة : المرأة لا ترى أحدا ولا يراها أحد ، تخرج من بيتها إلى الزوج أو إلى القبر !

ما أجمل قول حافظ إبراهيم :

الأم مــدرســة إذا أعــددتهــا أعددت شعبا طيّب الأعـراق !!

في الجاهليات القديمة !!

الجاهليات القديمة للعرب واليونان والرومان وغيرهم ظلمت المرأة ظلما مبينا حين استقبلت الأنثى بتجهّم وحين اجتاحت حقوقها بلا اكتراث ، وقد لجأ أفراد شواذ فى الأمة العربية إلى وأد الطفلة عندما تولد ! وهو تصرف وحشيّ مستنكر فاحش !

وما نشكّ فى أنه عمل فرديّ رفضه أولو الألباب وحقروا مقترفيه ، أما جمهرة العرب فى الجنوب والشمال فقد صوّر موقفَهُمْ من الطفولة كلها قول الشاعر :

لولا بنيّات كزُغْبِ القطا ... رُدِدن من بعض إلى بعض
لكان لى مضطرب واسع ... فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشى على الأرض

ويقول شاعر آخر فى ابنته أُمَيْمَة :

لولا أميمة لم أجزع من العدم ... ولم أقاس الدجى فى حندس الظُّلَم
وزادنى رغبةً فى العيش معرفتى ... ذلّ اليتيمة يجفوها ذوو الرحم !
أحاذر الفقر يوما أن يُلِمَّ بها ... فيهتك الستر عن لحم على وضم !

والواقع أن جمهرة العرب كانت شديدة الغيرة على النساء تسترخص الدّماء فى الدفاع عنها ، وتمنحها الفرصة لتكون كريمة عظيمة ! كان المنذراللخمى ملك الحيرة أنجب بنتا اسمها حُرَقَةُ وابنا اسمه حُرَيق !

ودارت الأيام وفقد المنذر مملكته ، وانتقلت الأسرة من حال إلى حال ، فقالت حُرَقة فى ذلك :

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا ... إذا نحن فيهم سوقة نتنصّفُ !
فأفٍّ لدنيا لا يدوم نعيمها ! ... تقلّب تارات بنا وتصرّفُ !

فلما فتح سعد بن أبى وقاص أرض الفرس ، أتته حُرَقة بنت النعمان مع عدد من جواريها تطلب منه العون ، فنظر إليهن وسأل : أيتكن حرقة ؟

قلن : هذه وأشرن إليها !

قال لها : أنت حرقة ؟

قالت : نعم فما تكرارك الاستفهام ؟ إن الدنيا دار زوال ، وإنها لا تدوم على حال . إنّا كنا ملوك هذا المصر من قبلك ، يجىء إلينا خراجه ، ويطيعنا أهله زمان دولتنا . فلما أدبر الأمر وانقضى صاح بنا صائح الدهر ، فصدع عصانا وشتت شملنا ، وكذلك الدهر يا سعد ! إنه ليس من قوم بسرور وجذَةٍ إلا والدهر مُعْقبُهم حسرة ، وكررت بيتيها السابقين .

فأكرمها سعد وأحسن جائزتها ، فلما أرادت فراقه قالت له : لا أنصرف عنك حتى أحييك بتحية ملوكنا : لاجعل الله لك إلى لئيم حاجة ، ولازال لكريم عندك حاجة ! ولا نزع من عبد صالح نعمة إلا جعلك سببا لردّها عليه !

فلما خرجت من عنده تلقاها نساء البلد ، فقلن لها : ما صنع بك الأمير ؟

قالت : حافظ لى ذمتى ، وأكرم وجهى ! إنما يكرم الكريمَ الكريمُ . .

أنظر عقل هذه الأميرة السابقة وأدبها وحكمتها وكيف حاورت سعد بن أبى وقاص القائد الفاتح المنتصر ، فنالت تقديره وإكرامه . .

وددت لو أن المثقفات العربيات كنّ على هذا المستوى ، فنلن إعجاب واحد من العشرة المبشرين بالجنة .

إن المرأة تعظم بعملها الواسع وبيانها الحكيم وسيرتها الماجدة .

الجاهلية العربية .. أشرف !!

استكثر البعض أن أقول : إن الجاهلية العربية الأولى كانت أشرف من جاهليات اليونان والرومان ، لاسيما فى الوضع الاجتماعى للمرأة ! ويبدو أن هذا الاستكثار يعود إلى سوء ظننا بأنفسنا وحاضرنا وماضينا بعد الهزائم الحضارية المهينة التى لحقت بنا فى العصور الأخيرة وصدق المثل السائر : إن الدنيا إذا أقبلت على أحد أعارته محاسن غيره ، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه !

صحيح أن الإشراك بالله كان قاسما مشتركا بين هذه الجاهليات كلها ، « فهبل » الإله الكاذب عند العرب هو « أبولو » الإله الكاذب عند اليونان ! وليس أحد الفريقين أولى بالتسفيه من الآخر !

أما النظرة إلى المرأة ، والتشرّف بصونها والإستقتال فى حمايتها فخلق عربى لا يكاد الرومان أو اليونان القدامى يعرفون شيئا عنه !! وتدبّر قول عمرو بن كلثوم فى معلقته :

على آثارنا بيض حسانٌ نحاذر أن تقسَّمَ أو تهونا
إذا لم نحمهنَّ فلا بقينا لشىء بعدهن ولا حيينا !!

أين هذا من قول الشاعر اليونانى « سيموندس » الأمورجى « جعل الله عند الخلق طبائع النساء مختلفة ، فجاءت إحداهن كأنما أخرجها الله من خنزير ، وأخرى كأنما أخرجها الله من ثعلبة ماكرة ، وثالثة كأنها الكلبة حركة ونشاطا ، فهى تجوس أركان المكان فاحصة متطلعة ، فإن لم تجد شيئا أطلقت لسانها بالسوء » !!

قد تقول هذا شاعر أحمق لا يؤخذ من كلامه حكم عام ! ونقول : لنترك أقوال هذا الشاعر وأمثاله وهم كثير فماذا نقول فى إفلاطون الفيلسوف الأشهر ، وفى مدينته الفاضلة ؟

لقد جعل النساء آخر طبقات المجتمع وتركهن كلأ مباحا على الشيوع بين طبقة الحكام والفرسان !!

فإن تكن هذه معالم المدينة الفاضلة فما تكون معالم المدينة النازلة ؟

أما الرومان فإن مكانة الأنثى لديهم منحطة بطبيعتها ، وليست لها الحقوق المقررة للرجال ، ولما كانت القوانين الأوربية تمتّ بنسب وثيق إلى الرومان الأوائل ، فإن القانون الأنجليزى حتى القرن التاسع عشر كان يبيح للرجل أن يبيع زوجته ! ولم يتدخل القانون إلا فى تقدير السعر الذى يمكن أن تباع به . .

والقانون الفرنسى يجعل تصرفات الزوجة المالية تابعة لمشيئة الزوج !

إن الإسلام وحده هو الذى صان شخصية المرأة وردَّ كل عدوان عليها وفق قاعدته : « لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » .

والذى يحزّ فى نفسى أن جمهورا من المتدينين الجهلة فى بلادنا تبنى مفاهيم الجاهليات اليونانية والرومانية وغيرها وقرر أن يحيا فى نطاقها ، وزاد إلى هذه السفاهة أن قرر الدعوة إليها بحسبانها مفاهيم إسلامية !

كيف نحمى الإسلام من أصدقائه الجهلة ؟ فهم أضرى عليه من أعدائه السافرين !!

فى عصور الانحطاط

فى دراستى للمجتمع العربى قبيل البعثة الشريفة وفى مطلع الدعوة الإسلامية وجدت وضع المرأة أوضح وأرسخ من وضعها أيام انحلال الأمة فى عصور الهزيمة والاضمحلال الأخيرة .

ولنترك مأساة وأد الأنثى فى بعض القبائل أو فى مسالك الجاهلين الشاذين ؛ ولننظر إلى الوعى العام للمرأة ، ونضج شخصيتها ، ومشاركتها فى شئون الحرب والسلم ، وقدرتها على بلوغ الصفوف الأولى فى مواجهة الأحداث التاريخية الكبرى ، إننا نرى ما يستحق التسجيل !

لقد شاركت المرأة فى بيعة العقبة الكبرى ، وشاركت فى بيعة الرضوان تحت الشجرة ! ومن المؤكد أنها كانت ستمنع من مثل هذه المبايعات فى تاريخ المسلمين الأخير ، وسيقال لها : إمكثى فى بيتك !

وروى أحمد عن أنس بن مالك أن أبا طلحة ـ قبل أن يسلم ـ خطب أم سُليم ـ وهى مسلمة ـ فقالت له المرأة الراشدة : يا أبا طلحة ! ألست تعلم أن إلهك الذى تعبد نبت من الأرض ؟

قال : بلى !

قالت : أفلا تستحى تعبد شجرة ؟ إن أسلمت فإنى لا أريد منك صداقاً غير الإسلام !

قال لها : دعينى حتى أنظر فى أمرى . .

فذهب ثم جاء فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فقالت لابنها أنس ـ راوى الحديث ـ يا أنس زوِّج أبا طلحة !! فزوَّجه من أمه !

أى مجتمع هذا ؟ إننى بقدر ما أعجب من ذكاء المرأة وإخلاصها لدينها أعجب لسلامة الفطرة وانتفاء الريبة وسهولة الحلال وسرعة إقراره .

وروت أم عطية أنه حين قدم رسول الله المدينة جمع نساء الأنصار فى بيت ثم أرسل إليهن عمر بن الخطاب ، فقام على الباب فسلّم عليهن ! فرددن السلام ، فقال : أنا رسول رسول الله إليكن .

فقلنا : مرحبا برسول الله ، وبرسول رسول الله !

فقال عمر : تبايعن على أن لا تشركن بالله شيئا ولا تسرقن ، ولا تزنين ، ولا تقتلن أولادكن ، ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن ولا تعصين فى معروف ؟

قلن : نعم !

فمدَّ عمر يده من خارج الباب ومددن أيديهن من داخل ، ثم قال : اللهم اشهد !

ولم يجعل عمر البيعة مصافحة باليد ، وهذه هى السنة ، تنزيها لجوّ التديُّن من الشبهات التى عُرفت فى أديان أخرى .

وللكهان فى هذا المجال دسائس محظورة ، من الخير تحصين الإسلام منها ، فلا نريد أن يكون بيننا أشباه راسبوتين .

وأنا إذ أسوق الخبر الأخير أذكر أن أحد العلماء المسئولين عَتَبَ علىّ أنى حين أدخل للتدريس بين الطالبات ألقى عليهن السلام !

قلت : وما الحرج فى أن يسلِّم أستاذ على تلميذاته ؟

قال : هذا لا يجوز !

قلت له : إن البخارىّ روى جواز هذا ووقوعه !

فقال : لكن العلماء لم يأخذوا بروايته .

قلت : أى علماء : إن الجهال هم الذين يقولون فى الإسلام بغير علم ، ويرجحون تقاليد آبائهم على تعاليم الإسلام .

لنعرف الموقف الصحيح

فى عصور متطاولة كان نصيب المرأة قليلا من الرحمة العامة الغامرة التى بعث بها صاحب الرسالة الخاتمة ! حاشا عصر البعثة الشريفة والخلافة الراشدة فإن المرأة شهدت أياما ذهبية .

وتأمل موقف النبىِّ الكريم من جميلة بنت أوس عندما جاءته تشكو بقاءها فى بيت الزوجية لا لشىء إلا لأنها تكره هذا الزوج وتعاف عشرته !

إن النبىَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لها : لقد أعطاك زوجك حديقته مَهْرا ، فهل تردين عليه حديقته ؟

قالت : نعم !

فأمر الرجل فطلقها !

إن الأسرة لا تقوم على امرأة تبغض الرجل وتشتهى مفارقته ومن هنا قال تعالى : « فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به » . .

وهل هذا الخلع طلاق أم فسخ للعقد ؟

بحث لا نتعرض له هنا وإنما نتعرض لموج فقهى أو قانونى عاصرته فى مصر ، فقد كان القضاء الشرعى يحكم بأن يقود رجال الشرطة المرأة الكارهة بالقوة إلى بيت الطاعة لتحتضن من تبغض !!

وكان رد الفعل لهذا المسلك أن وُضع باسم الشريعة قانون آخر يخرج الرجل من البيت إذا أوقع الطلاق !

لم هذا الاضطراب فى فهم الدين وتطبيقه ؟ وأين قوله تعالى : « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » ؟

إن للمسلمين غرائب فى فهم شريعة الخلع وشريعة الطلاق لا تقوم على فقه واع واسع الأفق !!

وأمر آخر نذكره آسفين ! ذهبت نسوة إلى أحد المساجد للصلاة ، وأخذن فى مؤخرة الصفوف مكانا قصيا ، فجاءهن إمام المسجد غاضبا يقول : إن المساجد بنيت للرجال وحدهم قال تعالى : « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال » .

وقابلنى هؤلاء النسوة كسيرات كاسفات البال فقلت لهن : هذا رجل جاهل فإن الله يقول : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » فهل الصدق فى العهد والوفاء بالوعد والثبات على الدين إلى آخر رمق وقف على الرجال وحدهم ؟ فأين قوله تعالى : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » ؟

ولكن منطق الجهل نصب سرادقه على جماهير غفيرة من الناس ورأوا أن ذهاب المرأة إلى المسجد بدعة منكرة ، وأن تلقينها أنواع الثقافات تقليد أجنبى ، وأن وعيها بالشئون العامة تطفل مرفوض !

وامرأة مغلقة على هذا النحو كيف تكون راعية بيت ؟ وربّة أسرة ؟ ومنشئة أجيال محترمة ؟ إن تقهقر الأمة الإسلامية فى الأعصار الأخيرة يعود إلى العجز الشائن فى فهم موقف الإسلام الصحيح من المرأة .

وهذا العجز من وراء انتصار المدنية الحديثة وانتشار عُجَرها وبُجَرها فى آفاق عريضة ، والعلاج يقدمه فقهاء أذكياء منصفون ، لا متفيهقون متعالمون .

والحضارة الغربية الحديثة ورثت عن اليونان والرومان مباذل وضيعة مخزية ، ومع ذلك فهى تتغافل بخبث عن عللها ، وتتناسى الدنس الذى تصبح فيه وتمسى ، وتبسط لسانها بالأذى فى سيرة أمير الأنبياء ، ومعلم الأمم الطهر والعفاف !!

وهل تنتظر من بيئة « الإيدز » إلا هذا التدنى ؟

تشريع خاص .. لهن !!

قال لى متعجبا : كيف تم زواج عائشة ، وهى فى الصبا الباكر بمن زاد عمره على الخمسين ؟

فقلت له : سؤال وارد لا غرابة فيه ! ولكن دهشتك سوف تزول يقينا عندما تعلم أن عائشة قد تقدم لها قبل محمد أحد الخاطبين !

قال ـ وقد فغر فاه وحملق عينيه ـ كيف كان ذلك ؟

قلت : ذكر بعض المؤرخين أن جبير بن المطعم بن عدىّ تقدم لخطبة عائشة ، وحدَّث بذلك أبويه فقبلا بادىء ذى بدء ، وذهبا إلى أبى بكر راغبين فى إتمام الزواج . . غير أنهما خشيا بعد قليل أن يترك ابنهما دين آبائه ، ويعتنق الإسلام متأثرا بأصهاره ، فتريثا فى الأمر ، وبدا لهما أن يرجئاه . .

وهنا جاءت خولة بنت حكيم إلى أبى بكر تذكر أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتجه إلى طلب عائشة ، ذهب أبو بكر إلى المطعم يسأله : أهو باق على رغبته فى خطبتها لابنه ؟ فاعتذر إليه ، وترك له حرية التصرف .

وعندئذ لم يبق هنالك وعد ولا عهد ، وتم زواج محمد من بنت أبى بكر !

إن هناك فتيات ينضجن فى سن مبكرة ، وقد أخبرنى أحد الأطباء أن القضاء عرض عليه فتاة لمعرفة عمرها ، فقدر لها سن سبعة عشر عاما ، ثم تبين من شهادة الميلاد أنها فى الثالثة عشرة .

إن عائشة يوم بنى بها الرسول كانت أهلا للزواج يقينا ، وما نشك فى أن الدافع الأول لهذا الزواج كان توثيق العلائق بين النبىّ الكريم وصاحبه الأول ، وهو الدافع لتزوجه من حفصة بنت عمر بن الخطاب لما آمت من زوجها ! ولم

تكن حفصة امرأة ذات جمال ، ولكن هذا العنصر لم يكن المانع من هذه ، ولا الدافع إلى تلك !

لقد كانت هناك أسباب اجتماعية وسياسية أوحت بتعزيز الروابط حينا ، وجبر الكسور حينا ، ومدّ الجسور بين صاحب الدعوة وأشتات من الأتباع والأسر التى تزحم جزيرة العرب فى أيام مليئة بالأزمات والمحرجات . .

ربما قال قائل : آمنا بأن تعدد الزوجات كان مألوفا فى الديانات الأرضية والسماوية حتى جاء الإسلام فوضع عليه القيود ، فلماذا لم يلتزم نبى الإسلام بالعدد الذى وقف بالمسلمين عنده ؟ ألم يجىء فى الأحاديث الصحاح أنه أمر رجلا لديه عشر زوجات أن يمسك أربعا ويسرِّح الباقيات ؟

قلت : سؤال صحيح ! فلنتدبر الإجابة عليه ! أن النسوة الست التى طلقهن صاحب العَشرة سيتركن بيته ويجدن بيوتا أخرى ، فلهن حق الزواج ممن أحْبَبْن ، ولا حرج على أحد فى التزوج منهن !

لكن ماذا عسى يفعل زوجات الرسول إذا كان الوحى قد نزل منْ قبل يقول للمسلمين : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما » .

لقد صرن أمهات للمؤمنين وفق النص القائل : « النبىُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم . . » وما كان لمؤمن أن يتزوج أمه ! فهل يسوغ بعد هذا تسريحهن ليعشن فى وحدة وإياس ؟

ولنفرض زورا أن تسريحهن مطلوب فهل هذا هو الجزاء الإلهى لنسوة تَحمّلن مع صاحب الرسالة شظف العيش ومشقات الحصار المضروب على أمته ؟

لقد اخترن البقاء معه عندما خيَّرهن ، وأبَيْن العودة إلى أهلهن فى بيوت أمْلأً بالسمن والعسل ، وحملهن الإيمان على البقاء فى جو التهجّد والصيام والكفاح مع النبىّ الذى انتصب لمقاومة الضلال فى العالمين ، فهل يكون الجزاء بعد هذا الوفاء الخلاص منهن ؟

إن الله أذن ببقائهن ، والاقتصار عليهن « وصَغّر لهن تشريع خاص « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن ، إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شىء رقيبا » .

وإنى أسائل الماجنين على محمد من خلال هذه الثغرة المزعومة فى حياته : أهى محاكمة خاصة لهذا الإنسان الشريف ؟ ومحاولة متعمدة للنيل منه وحده ؟

أعرف أن مساءات كثيرة وجهت لأنبياء من قبله ، وتعرض الرجال الصالحون لأقبح التهم !

ألم يتّهم النبيّ الطاهر لوط بأنه زنى بابنتيه كلتيهما بعد ما أفقدته الخمر وعيه وأنجب منهما ؟

ألم يتهم النبي يعقوب بأنه سرق منصب النبوة من أخيه الأكبر عيصو بعد عملية احتيال ماكرة على أبيه الذى كفّ بصره ؟

ألم يتهم سليمان بأنه انطلق فى شوارع القدس يبحث عن الحبيب المجهول ليأخذه إلى فراشه ، مع أن عنده ألف امرأة ؟

إن هذا البحث الماجن استغرق عدة صفحات مليئة بجمل طائشة تحت عنوان الإنشاد الذى لسليمان ! من شاء قرأه فى العهد القديم ..

ومع جنون الاتهام الذى سيطر على كاتبى هذه الصحف ، فإن المتهمين بقوا أنبياء مكرمين !

أما سليمان فقد جعله اليهود ملكا ، ولكن أى ملك ؟ إنه بانى الهيكل الذى يجب أن يعاد بناؤه ليكون مسكنا للرب يتجلّ فيه بهاؤه ويحكم العالم كله من سُدّته بوساطة شعبه المختار من بنى إسرائيل !!

أما محمد الصوّام القوّام الكادح لله طوال حياته ، والذى جمع آخر عمره بضع نسوة من الأرامل والمصابات عشن معه على مستويات الضرورة ، وتَمَحّضن لله والدار الآخرة فهو وحده الذى يستباح وتتوارث الضغائن عليه ، ويتجمع حلف الأطلسى لحماية شاتميه !!

ومَنْ أولئك الشاتمون الغاضبون ؟ أهم رهبان وقذتهم العبادة وكبتوا حبّ النساء فى دمائهم فهم يشتهون ويميتون شهواتهم ابتغاء رضوان الله كما يزعمون ؟

كلا ، إنهم أفراد وشعوب شربوا كئوس الشهوات حتى الثمالة ، ولم يتركوا بابا للذة إلا افتتحوه دون تهيب أو حياء !

وحضارة أوروبا تميزت بأنها يسَّرت للدهماء من المتع ما كان حكرا على الملوك والرؤساء فأضحى الصعلوك قادرا على الاتصال بسبعين امرأة كلما ذاق جديدا طلب مزيدا ما تحجزه عن دناياه تقاليد ولا قوانين ، وفى هذا الوسط من الدنس يذمون محمدا وينالون منه !

أى منطق هذا المنطق الجائر الظلوم ؟

إن الإسلام لم يأمر بتعدد الزوجات ، فإن الزواج ليس نشدانا للذة فقط وإنما هو قدرة على التربية ورعاية الأسرة ، فمن عجز عن ذلك كلفه الإسلام بالصوم ، ونحن نوجه للأوربيين سؤالا لا مهرب منه : هل التعدد الذى أذن الإسلام به أفضل أم الزنى ؟

إنى أسائل كل منصف صادق : هل المجتمعات الأوروبية تكتفى بالواحدة أم أن التعدد قانون غير مكتوب يخضع له الكثيرون ؟

وثم سؤال آخر : هل الضرورات هى التى تدفع إلى التعدد الحرام أم أن الإثارات المتعمّدة فى الاختلاط المطلق وفى تقاليد الرقص التى لا آخر لها من وراء هذا الفيضان من العلاقات الآثمة ؟؟

وأختم هذا القول بسؤال حاسم : هل وعى التاريخ الجاد سيرة رجل أعفّ خلقا وأشرف ثوبا وأغير على الحرمات وأبعد عن الشبهات من محمد ؟

هل حكى عن أحفال فى بيته رُصَّت فيها الموائد وعليها زجاجات الخمور ، وأطايب الأطعمة ، وأنواع المشهيات والمواضيم ؟

لقد كانت عيدان الحصير تنطبع على جلده وهو نائم ، أو جالس ، فإذا ظفر مع أصحابه بالخبز واللحم عدّ ذلك من النعيم الذى يسأل الناس عنه يوم القيامة !!

فهل هذا النبىّ الفارس المخشوشن الجلد يوصف بأنه من أصحاب الشهوات ؟

ومن الذى يصفه ؟ الذين ابتلاهم الله « بالإيدز » بعد ما ابتلاهم بالزهرى وغيره من أمراض الإسفاف والإسراف والسقوط !!

إمراتان.. نادرتان !!

كانت أم المؤمنين « خديجة » سيدة ثاقبة البصيرة ، خبيرة بأغوار الرجال ،

تعرف طبائعهم فلا يخفى عليها معدن نفيس ، ولا يخدعها طلاء مزوّر ! ولعل اشتغالها بالتجارة كوّن لديها هذه الملكة. فالتجار من أعرف الناس بطوايا النفوس !

وفى ميدان عملها التجارى عرفت خديجة محمدا - عليه الصلاة والسلام - وخطبته لنفسها ، ولم يكن محمد مجهولا لدى جمهور العرب ، كانت خلائقه الزاكية موضع إجماع وحب ، وكثيرا ما تكون زكاة الباطن كصباحة الوجه أساسا لتقدير عام أو عنوانا لا يختلف فيه اثنان . .

لكن خديجة بعد زواجها ازدادت خبرة برجلها وأدركت أى أفق من الكمال قد بلغه ! فلما أخبرها بما عرض له فى غار حراء قاست المستقبل على الماضى ، وأقسمت أن مثله لا يضيع ، وأنه يستحيل أن يخذل الله رجلا قد أفاء عليه خلال النبل والشرف كلها ، قالت : « والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصدق الحديث وتصل الرحم وتحمل الكلّ وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق وتؤدى الأمانة » .

إن الله لا يخزى فى الدنيا ولا فى الأخرى صاحب هذه السيرة ! ذاك إنسان مُحَصَّنٌ من عدوان الشيطان « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا » . .

وخديجة من سروات قريش ، أى من قمة المجتمع العربى ، وهى أول من آمن من النساء ، لكن الإسلام دين عام ينتظم البشر أكابرهم وأصاغرهم ، فإذا كانت أفئدة بعض الأغنياء تهوى إليه ، فإن جماهير من الفقراء تدخل فيه وتستبشر به ، السادة والعبيد جميعا لهم مكان واحد فيه ، فأبو بكر المرموق يعتنقه ، وبلال المملوك يعتنقه ، ثم يجىء عمر العظيم فيقول : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا ! !

لا طبقات فى هذا الدين ، ولكن أخوة عامة ، وإذا كانت خديجة أول من آمن ، وهى من البيوتات الرفيعة ، فإن أول من اسْتُشْهِدَ « سُمَيَّة » أم عمار وهى من البيوتات المستضعفة التى لا يؤبه لها .

واختبار الله لعباده فنون ، إنه يختبر بالشهرة والخمول وبالثروة والعدم وبالصحة والسقام ، والمهم هو الآخرة ، عن عثمان بن عفان - وهو من قمة قريش - قال بينما أنا أمشى مع رسول الله بالبطحاء إذ بعمار وأبيه وأمه يعذّبون فى الشمس ليرتدُّوا عن الإسلام ! قال أبو عمار : يا رسول الله ، الدهر هكذا ؟

فقال : « صبراً يا آل ياسر ، اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت ! » .

وجاء قادة الجاهلية ليُسرّوا بمنظر التعذيب ، وكان بينهم أبو جهل الذى غاظه تجلُّد المرأة ، وصبرها على ما ينزل بها ، فطعنها بحربته فى أسفل بطنها طعنة مزقت رحمها وأودت بحياتها فكانت أول شهيدة فى الإسلام .

وطال المدى على توقع العقاب الإلهى حتى كانت غزوة بدر ، وخرج الفرعون الصغير ليقاتل المؤمنين وهناك وكل القدر به اثنين من فتيان الإسلام ظلا يناوشانه بسيفيهما حتى صرع ! « إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا ، فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا » .

كم أشعر بالإعجاب لأول امرأة أسلمت ، ولأول امرأة استشهدت !

الصديقة.. الأديبة

كانت أم المؤمنين عائشة ذواقة للأدب العربى ، شعره ونثره ، سريعة الاستشهاد به فيما يمر بها من أحداث ، ولم أرَ هذه القدرة لغيرها من النساء .

فعندما قتل علىّ بن أبى طالب قالت :

فألقتْ عصاها واستقرّ بها النوى كما قرّ عينا بالإياب المسافر !

ولما احتُضر أبوها أبو بكر قالت :

لَعَمْرُكَ ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حَشْرَجَتْ يوما وضاق بها الصدر

فقال الصديق لافتا نظرها إلى ما هو أفضل ، ليس هكذا تقولين ! قولى كما : « وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد » .

وعندما قتل أخوها محمد بن أبى بكر بمصر قالت :

وكنا كنَدْمانَىْ جزيمةَ حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدّعا !

فلما تفرقنا كأنى ومالكا ! لطول اجتماع لم نبتْ لَيلة معا !

قال الرواة : وأرسلت عائشة أخاها عبدالرحمن إلى مصر فأحضر أولاد أخيها اليتامى ، واحتضنتهم حتى إذا كبروا قالت لعبدالرحمن : لقد ضممتُهم إلىّ لصغر سنهم وخشيت أن تتأفف نساؤك منهم ، فكنت أنا ألطف بهم ، وأصبرَ عليهم ، فالآن خذهم إليك وكن لهم كما كان حُجَيَّةُ بن المضرِّب لأولاد أخيه مَعْدان !

والحجية هذا قصة طريفة بعد أن مات أخوه معدان ! فقد رأى أولاده اليتامى تخرج إليهم خادمته ببقايا لبن فى قعب مكسور ، هو كل ما جادت به زوجته عليهم ! فملكه الوجوم والغضب ! ثم أمر أن تحلب ماشيته فى بيت أخيه قبل أن تحلب ببيته ! وأن يأكل يتاماه من الأصول لا من الفضول ، وغضبت لذلك إمراته فقال حجية :

تلوم على مال شفانى مكانه   إليك فلومى مابدا لك واغضبى !
رأيت اليتامى لا تَسَدُّ فقورهم   هدايا لهم فى كل قعْب مُشَعَّب !
ذكرتُ بهم عظام من لو أتيته   حريبا لآسانى لدى كل مركب !
أخى والذى إن أدْعه لملمة   يُجِبْنى وإن أغضَبْ إلى السيف يغضب!

إن الصديِّقة الأديبة تذكِّر أخاها بخلال رجل من شعراء الجاهلية ! قال عروة بن الزبير : ما رأيت أعلم بطب ولا بفقه ولا بشعر من عائشة .

وفى طبقات ابن سعد كانت عائشة أعلم الناس ، يسألها الأكابر من أصحاب رسول الله .

وعن أبى سلمة : ما رأيت أعلم بسنن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عائشة ، ولا أحداً أفقه فى رأى إن احتيج إلى رأيه ، ولا أعلم بآية فيما نزلت ولا فريضة ، من عائشة رضى الله عنها .

وكانت ـ رضى الله عنها ـ تفتى فى عهد عمر وعثمان إلى أن ماتت . .

وعلْمُ عائشة يتجاوز الفتوى إلى التصحيح ، وردّ ما يشيع من خطأ ، وكان رسوخها فى فهم القرآن ، وفقهها فى السنة النبوية ، واطلاعها الواسع على أدب العرب يجعلها المرجع الثقة أبدا .

ألا تكون هذه السيرة الناضرة أسوة للنساء المسلمات فى شتى الأعصار والأمصار ؟ أم نقول للنساء : اقعدن فى البيوت لا شعر ولا نثر ، ولادين ولا دنيا !؟

في العلم.. والأدب

مع اضمحلال الفكر الديني في الأعصار المتأخرة هبط المستوى الإنساني للمرأة هبوطا مخجلا في ميدان العلم والأدب ، وعادت الجاهلية الأولى تنشر مآثرها ونزعاتها !

بل إننا نقرأ كلمات للنساء الأول يستحيل أن تكون لها نظائر على لسان النساء في أعصار التخلف الأخيرة ، تدبر ما تقوله « أم الصريح الكندية » ترثى رجالا من قومها ثبتوا في الميدان حتى تفانوا جميعا :

أبوْا أن يفرّوا والقنا في نحورهم ! وأن يرتقوا من خشية الموت سُلّما
ولو أنهم فرّوا لكانوا أعـزّة ! ولكن رأوا صبرا على الموت أكرما !

والإعتذار عن فرارهم - لو فرّوا - إنما وقع لأنهم نفر قليل واجه جيشا كثيفا ، وكان يمكن أن يقولوا ما قاله الحارث بن هشام لما ترك المعركة لأنه التقى - وهو فرد - بجيش كبير واعتذر قائلا :

وعلمت أنى إن أقاتل واحداً أقتل ولا يضرر عدوى مشهدى
فَصَدَدْتُ عنهم والأحبة دونهم طمعا لهم بعقاب يوم مُرْصد !

لكن هذه الفلسفة السياسية لم تعجب المرأة الشجاعة ، ورأت أن الصبر على الموت أكرم !! ومثل هذه المرأة يلد أولى الفداء والنجدة والرجال الذين يحمون الإيمان بأرواحهم دون تردد .

وهذه امرأة أخرى ، هى أم صعلوك من صعاليك العرب ذهب ابنها في إحدى الغارات وبقيت هى تنتظره فلم يعد ، ولو كانت هذه الأعرابية أمًّا لأحد « اللوردات » الإنجليز لترجمت كلماتها على أنها من روائع الأدب !

إن ابنها ذهب كغيره من الصعاليك يطلب الغنى ويكره الفقر ، والمرأة تسمى الفقر هلاكا (!) وهو كذلك في دين الله وفطرة النفوس ولكن الفقر - في التدين الفاسد - منزلة من منازل الصالحين حين يتقربون إلى الله !

وهذه قصيدة المرأة :

طاف يبغي نجوة من هلاك فهلك
ليت شعري ضلة أي شيء قتلك
أمريض لم تعد ؟ أم عدو ختلك ؟
والمنايا رصد للفتى حيث سلك !
أي شيء حسن لفتى لم يك لك
كل شيء قاتل حين تلقى أجلك !
طالما قد نلت في غير كد أملك !
إن أمرا فادحا عن جوابي شغلك
سأعزي النفس إذ لم تجب من سألك !
ليت قلبي ساعة صبرة عنك ملك !
ليت نفسي قدمت للمنايا بدلك ..

وقالت صفية الباهلية ترثي أخاها ، وتذكر أنها كانت معه فرسي رهان في سباق الأمجاد والمكرمات حتى ذهب وبقيت وحدها ..

كنا كغصنين في جرثومة سمقا حيناً بأحسن ما يسمو له الشجر !
حتى إذا قيل قد طالت فروعهما وطاب فيآهما واستُنظر الثمر !
أخنى على واحدي ريب الزمان وما يبقى الزمان على شيء ولا يذر !
كنا كأنجم ليل بينها قمر .. يجلو الدجى، فهوى من بينها القمر!

هكذا كان الرجل والمرأة ، فهل هما كذلك الآن ؟

مثل عال .. للمسلمة المجاهدة

كانت الأسرة الإسلامية كلها تهتم بشئون دينها وبقضاياه السياسية والعسكرية ! ولم يكن هذا الاهتمام التقاط أخبار أو تسمُّع أنباء المعارك في شتى الميادين ، بل قد يكون مشاركة شخصية من الأمهات والزوجات ..

وأمامى نموذج مثير لقصة وقعت فى حرب الردَّة عندما اشتبك المسلمون فى قتال فادح المغارم مع أتباع مسيلمة الكذاب!

ومسيلمة هذا شخص عجيب فإن جنون العظمة قد يدفع أصحابه إلى ما يشاكل طباعهم من انحراف ، « فنيرون » قد يحرق روما و« هولاكو » قد يدمر بغداد ، وقد يستطيع مسيلمة أن يكون قاطع طريق فيشبع تَطَلُّعَهُ إلى الظهور! أما أن يدعى النبوة فهذا ما لا مساغ له . .

لكن سعار العظمة جعله يدَّعيها ويرسل إلى النبيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قسم الأرض نصفين بينها! وقد تجاوز النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا الهزل ، وأرسل حبيب بن زيد يتحدث معه ويستطلع خبره ويحاول ردّه إلى صوابه .

وكان حبيب شابا مؤمنا جريئا ، فلما رآه مسيلمة قرر قتله! فسأله أولا : أتشهد أن محمدا رسول الله؟

قال : نعم .

قال : أتشهد أنى رسول الله؟

فَتَصَامَمَ حبيب ، وأشار بوجهه لا أسمع .

وكرر مسيلمة دعواه ، وكرر حبيب رفضه الصامت المستهزىء المستكبر!

وهنا بدأ مسيلمة يقطِّع الشاب المؤمن عضوا عضوا ، كلما سأله فرفض الإيمان به قطع جزءا من جسمه ، فلما استمر تقطيع الأشلاء ، ونزف الدماء فاضت روح الشاب الجلد وهو يحتقر الباطل ويعز الحق!

وعلمت أمه « نسيبة بنت كعب الأنصارية » بمصرع ولدها على هذا النحو فنذرت ألا تغتسل حتى تثأر لولدها وحتى يقتل مسيلمة ، وخرجت المرأة مع ابنها عبدالله واشتركت فى معركة اليمامة وقاتلت جيش مسيلمة أشد قتال ، وأصابها إثنا عشر جرحا وهى مُقْبِمَةٌ شجاعة ، وقُطِعَتْ يدها خلال المعركة الشرسة ، لكن خيل الله قتلت مسيلمة ومحت أكذوبته بالدم الغزير ، وانتصر الحق ، وزاح الإفك ، وعادت نسيبة بعدما وفت بنذرها!

أكان أحد يستطيع ردّها عندما خرجت؟

كلا . . لقد شهدت من قبل قتال أحد ، وشهدت بيعة الرضوان فى عمرة الحديبية ، وشهدت فتح مكة ويوم حنين ، ومن قبل ذلك شاركت فى بيعة

العقبة ، إنها مثل عال للمسلمة المجاهدة التى شرفت أسرتها ودينها . .

وأعلم أن بعض المتفيهقين فى عصرنا لو صادف المرأة الصالحة وهى خارجة من بيتها لتقاتل الكذاب وأتباعه لقال لها : اقعدى فى بيتك ، لا يجوز لك هذا !

إن هؤلاء المتفيهقين تعرفهم عصور الاضمحلال العقلى ، ولا يمكن أن يظهروا فى مجتمع ناضج أو فى سلف صالح .

قانون .. « الحمد » !

بيتٌ عريق أخنت عليه الأيام فزلزلت مكانته فى المجتمع ، وأطمعت مَنْ دونه من الناس أن يتقدم خاطبا لبناته وما كان يجرؤ على ذلك من قبل .

وغضب ربّ البيت لكرامته التى جُرحت ، وتساءل فى أسف : أإذا عرضت له أزمة عابرة تطاول عليه الصغار ، وجاءه من يريد الزواج بابنته وهو ليس لها بكفء ؟

لذلك طرد بعنف بالغ الخاطب القادم قائلا له : تريد أن تكون سيدا بأخذ سيدة من بيتنا لا ترتفع إلى مستواها ؟ إذهب عنّا فالبنات كُثْرٌ بعد أن منع الإسلام وأد البنات ! أما ابنتنا ففى مكانها العالى لن تُرخصها أزمة مهما اشتدّت !!

وهاك الأبيات التى تفجرّتْ فيها ثورة رب البيت الجريح !!

تَبَغَّى ابن كوزٍ ـ والسفاهة كاسمها ـ ليَسْتادَ منّا أن شَتَوْنا لياليا

فما أكْبر الأشياء عندى حَزازة بأن أُبْتَ مَزْرِيًّا عليك وزاريا

وإنا على عضّ الزمان الذى بنا ـ نعالج من كره المخازى الدواهيا

فلا تَطْلُبَنْهَا يا ابن كوز فإنه غذا الناس مذ قام النبىُّ الجواريا

وإن التى حُدِّثْتها فى أنوفنا وأعناقنا من الإباء كما هيا

والذى استوقفنى من هذه القصة أمران :

أولها : أن الرجل الذى أحرجه الفقر تماسك وتحمل آلاما هائلة حتى لا يُلمّ بدنيئة أو يقترف ما لا يليق به .

والثانى : أنه أعزّ ابنته وجعل مكانتها فى أنفه وعنقه فلن تذل أبدا ما دام حيا !

وكلا الأمرين من خلائق السادة الذين يحترمون أنفسهم وأهليهم ، ولا يعنيني غير ذلك في القصة كلها .

والمجتمع العربيُّ قديما وحديثا تحكمه تقاليد صارمة بعضها لا بأس به وبعضها فيه نظر ، واهتمام العرب بنسبهم وسمعتهم قد يخالطه غروروكبر ، ولكن الأستاذ أحمد موسى سالم يقول : إن العرب في حياتهم الأولى كان يحكمهم قانون « الحمد » الذي جاء به اسم محمد من مشرق طفولته تأكيدا لمراحل الاصطفاء له من بين محامد العرب لا من بين مساوئهم ، فكان هو المحمَّد بحسب قانونهم وكان كما هو الواقع وكما قال عن نفسه « خيار من خيار من خيار » .

وقد شرحت الخنساء هذا القانون الشريف بقولها :

نَعِفّ ونعرف حق القِرى ونتخذ الحمد كنزاً وذُخراً !

وتقول أم حاتم الطائي - وكانت في سباق المكارم تجود لمن يسألها بكل ما تملك - :

لعمري لَقِدْماً عضَّني الجوع عَضَّةً فآليتُ أن لا أمنع الدهر جائعا!
وما إن ترَوْن اليوم إلا طبيعة ! فكيف بتركي يا ابن أمي الطبائعا؟

فهذه امرأة جاعت مرة فأقسمت ألا ترى جائعا إلا أعطته ما تملك ! وكان من حقها أن تفعل ذلك ! ولا يستطيع أحد أن يمنعها . .

وكانت إحدى حكيمات النساء قبل الإسلام - وهي جمعة بنت الخس - تصف الصدق وتجعله فوق كل الفضائل فتقول :

وخير خلال المرء صدق لسانه! وللصدق فضل يستبين ويبرز!
وإنجازُك الموعودَ من سبب الغنى فكن موفيا للوعد ، تُعْطى وتُنْجِزُ!

وقانون « الحمد » الذى أشار إليه الأديب الكبير جدير بالإقرار مع تعليق محدود « فالإسلام يريد منا أن نعمل ابتغاء وجه الله وانتظار مثوبته يوم اللقاء الأخير ، فإذا أخلصنا العمل له سبحانه جازانا بالذكر الحميد في الدنيا والآخرة ، ولا يجوز أن نعمل طلبا لثناء الناس، كما لا يجوز أن نُعرِّض سمعتنا للقيل والقال .

وفى العرب ميل للفخر والظهور والمباهاة وهى رذائل تشوب العمل الصالح وقد تطيح به .

الكل سواء .. فى سباق الفضائل !

والحق أن المرأة العربية فى الجاهلية الأولى برزت شمائلها الحسان فى ميادين كثيرة أيام الحرب وأيام السلم على سواء ، ولم توضع أمامها العوائق التى وضعت أمام المسلمات فى عصور الانحطاط العام للأمة الإسلامية .

وفى صدر الإسلام استطاعت امرأة من الخوارج أن تقود جيشا يهزم الحجاج ويحصره فى قصره ويتركه وهو مذعور ، حتى عيره أحد الشعراء على هذا الموقف المخزى بقوله :

أسدٌ علىَّ وفى الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر !
هلا برزت إلى غزالة فى الوغى بل كان قلبك فى جناحَىْ طائر !

أما فى العهود الإسلامية الأخيرة فإن المرأة ما كانت تدرى وراء جدران بيتها شيئا ! وعندما غلبتنا حضارة الغرب المنتصر كان همّ المرأة أن تقلّد فى الثوب الرشيق والمنظر الأنيق ! أما فى غزو الفضاء واكتشاف الذرة ودراسة النفوس والآفاق فإن الأمر لا يستحق الاكتراث ، لأنه ليس من شأنها ولا من رسالتها !!

إن الإسلام لا يقيم ـ فى سباق الفضائل ـ وزنا لصفات الذكورة والأنوثة ، فالكل سواء فى العقائد والعبادات والأخلاق ، الكل سواء فى مجال العلم والعمل والجد والاجتهاد .

لا خشونة الرجل تهب له فضلا من تقوى ، ولا نعومة المرأة تنقصها حظا من إحسان .

وفى القرآن الكريم « . . . من يعمل سوءاً يُجْزَ به ولا يجدْ له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » .

وفى عالم الرياضة اليوم يُفصل بين مباريات الرجال والنساء ، وتوضع مسافات وأرقام لكلا الجنسين على حدة . . ربما صحّ هذا فى دنيا الألعاب لكنه مستحيل فى سباق الصالحات ، وكسب الآخرة ، ربما تقدمت امرأة فسبقت ذوى

اللحى دون حرج وربما تأخرت ولو كانت قريبة أحد الأنبياء .. ولذلك قلنا : امرأة فرعون خير منه ، ومريم أشرف من رجال كثيرين » ونوح ولوط خير من زوجاتهم !!

وأذكر أن أحد الناس قال لى : إن القرآن يرجح الذكورة على الأنوثة ! ويسوق لزعمه قوله تعالى : « وليس الذكر كالأنثى » وهو فهم أعوج !

فالجملة القرآنية وردت على لسان امرأة عمران التى كانت حاملا ، وظنت أنها ستلد رجلا يكون سادنا للمسجد الأقصى وقائدا للعابدين والدارسين فيه » فلما فوجئت باختلاف ظنها وأنها ولدت أنثى ، قالت هذه الكلمة لأن المرأة لا تصلح لهذه القيادة بطبيعتها .

وقد قبلت الأمر الواقع لأنه مراد الله ! ودعت لابنتها ولذريتها بالصيانة والرعاية فاستجاب الله الدعاء بأن أعلى قدر المولودة فوق ألوف مؤلفة من البشر ، وأعلى قدر ابنها فجعله من الأنبياء أولى العزم ..

ولاشك أن هناك وظائف تخص النساء وأخرى تخص الرجال ، ولا علاقة لهذه التخصصات بموازين العدل أو الفضل الإلهى .

ماذا تفعل نساؤنا ؟

من أيام العرب المشهورة فى جاهليتهم الأولى يوم « ذى قار » عندما أغار الفرس على أرض الجزيرة بجيش كبير ، وتناسى العرب خلافاتهم لمواجهة هذا الغزو ، والتقت القبائل فى جبهة واحدة للوقوف أمامه .

يقول التاريخ : إن القائد العربى « حنظلة بن ثعلبة » أمر بقطع أحزمة الهوادج الموضوعة فوق ظهور الإبل ، وأنزل النساء كى يمشين على الأرض وراء المقاتلين ، ثم نادى فى الرجال بصوت سمعه قلب الجيش وجناحاه : فليقاتل كل منكم عن حليلته !!

وكانت هذه الصيحة كفيلة بإشعال الحماس وقتل كل تردد ، فانهزم الفرس هزيمة نكراء وولوا مدبرين ..

وفى معركة أحد خرج نساء المشركين وراء الجيش الذى يطلب الثأر من هزيمتهم فى بدر وهن ينشدن حاثّات الرجّال على الحرب :

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق !
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق !

كان للنساء دور كما ترى فى كسب المعارك ، وكانت لهن دراية بقضايا المجتمع كبراها وصغراها !

وقد ظهر ذلك فى بدء الوحى ، فإن أبا لهب عم النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان مع امرأته فى تكذيب الوحى ومقاومة الإسلام بضراوة وحقد ! وكانت المرأة تسمى الرسول « مذمّما » لا محمدا !! وتقول « مذمّماً أبيْنا . ودينه قليْنا . وأمرَه عَصَيْنا » .

ومشت بهذا الهجاء المسعور فى مجالس قريش تسفه وتتطاول وتبث الفتنة وتؤيد الكفر ، فنزل قوله تعالى فيها « وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد » والمرأة كانت من كبراء قريش ، لاتشتغل بالاحتطاب وإنما شُبِّه سعيها بالوقيعة والبذاءة وإيقاد العداوات ضد الإسلام بمن تحمل الحطب للوقود !!

قلت فى نفسى : إذا رزق الضلال نسوة ينصرنه بهذه الحمية ، ويتَبنَّيْنَ قضاياه بهذه القوة فلماذا يحرم الإيمان نشاطا نسائيا معارضا له ، واقفا ضده ؟

إن الذى أسقط آخر معاقل الإسلام فى الأندلس هما « فرديناد وإيزابيلا » رجل وامرأة تكاتفا على إسقاط علم التوحيد ! وفى النساء المسلمات آلاف وآلاف يستطعن خدمة الإيمان كما استطاعت المشركات خدمة الضلال فلماذا يحال بينهن وبين هذه الخدمة ؟

فى الانتخابات الأمريكية كانت امرأة المرشح الديمقراطى لرياسة الولايات المتحدة تسعى بجبروت لنصرة زوجها ، وظن الناس أنه كاسب المعركة ! ولما كانت المرأة يهودية فقد قيل : إن ملكة البيت الأبيض ستكون حليفة إسرائيل !

وشاء الله أن ينتصر الحزب الجمهورىّ ، فإذا الملكة المرتقبة يخامرها الأسى ! وحاولت أن تتغلب على آلامها بالخمر ، وهى الآن فى المستشفى تعالج من الإدمان ! لأنها تحاول النسيان !

لقد تساءلت : ما هذا الإخلاص ؟ ما هذا الشعور العميق ؟ لماذا لا ينشغل نساؤنا بخدمة المثل الإسلامية بهذه القدرة ؟ من يمنعهن ؟ ما يمنعهن إلا جاهلون بالإسلام .

ما أجمل أن يتطاوع الزوجان ، وأن يتعاونا على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم !

كان سعد بن ناشب رجلا حادّ الطبع قاسى اللفظ ، فلم ترض بذلك امرأته ، ولامته على شراسة خلقه وقساوة كلماته ! فقال يدافع عن سيرته ويشرح حقيقة نفسه :

تُفَنِّدُنى فيما ترى من شراستى وشدّة نفسى أم عمرو وما تدرى!
فقلت لها: إن الكريم وإن حَلا لَيُلْفَى على حالٍ أَمَرَّ من الصبر!
وما بى على مَنْ لان لى من فظاظة ولكننى فظٌّ أبِىٌّ على القَسْر !

وهذا اعتذار جميل ! ولكن المهم فيما قَصَصْنَا . نصح الزوجة لرجلها ورغبتها فى خيره وسلامته !.

وهذا رجل آخر سخىٌّ اليد واسع العطاء يتصدَّق بالجمل من إبلِهِ الكثيرة على من جاء يسأله عطاء ، ويقول لامرأته : هيِّئى حبلا للسائل يقود به جمله الذى وهبته له ، وينهاها عن لَوْمه :

لا تعذليني فى العطاء ويَسِّرِى لكل بعير جاء طالبه حَبْلا ..
فلم أرَ مثل الإبل مالا لمقتنٍ ولا مثل أيام الحقوق لها سُبْلا ..

وتجيبه امرأته « ليلى » إجابة لها وزنها عند أهل السخاء والفضل . تقول :

حلفت يمينا بابنِ «فحفان» بالذى تكفَّل بالأرزاق فى السهل والجبل
تزال حِبالٌ مُحْصَداتٌ أُعِدُّها لها ما مشى منها على خفه جَمَل ..
فأعط ولا تبخل لمن جاء طالبا فعندى لها خُطُمٌ وقد زاحت العِلَلْ

إن هذه النماذج من المجتمع العربى الأول تصوِّر فضائل الإيثار والسماحة التى شاعت فيه والتى حفظت توازنه ، وجعلت الأسرة مصدر استقراره وسنائه ، ولا عجب فالأسرة القوية هى الدعامة للمجتمع القوى ، والحافظ الأول لتقاليده ..

وجاء الإسلام فشجع المرأة على الجود من مال البيت ـ بما لا يضرّه بداهة ـ فعن عائشة أم المؤمنين ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إذا أنفقت المرأة من بيت زوجها كان لها أجرها ، وله مثله بما كسب ! ولها بما أنفقت ! وللخازن مثل ذلك من غير أن ينقص من أجورهم شىء » .

وعن أسماء بنت أبى بكر الصديق أنها قالت : يا رسول الله ليس لى شىء إلا ما أدْخلَ علىَّ الزبير ـ أى ما جاء من ماله الخاص به ـ فهل علىَّ جناح أن أرضخ ـ أن أعطى ـ مما أدخل علىّ ؟ فقال : « ارضخى ـ أعطى ـ ما استطعت ولا توكى ـ تبخلى ـ فيوكى الله عليك » !!

ونحن نتساءل عن الأسرة العربية الآن : هل بقيت فيها تقاليد العطاء والإفضال على طلاب الصدقات والمعونات ؟ أم غلبتها التقاليد الوافدة من الغرب وهى تقاليد تقوم على الأثرة والكزازة !!

هل ظل الرجال يشمخون بأنوفهم اعتزازا بحماية العرض وصيانة الأهل أم تسللت برودة التقاليد الأوروبية والأمريكية وأنشأت جيلا آخر له منطق آخر ؟.

لقد لاحظت أن المرأة الآن تفخر بأن لديها عشرات الفساتين ، الموافقة لآخر صيحة فى عالم الأزياء ، ذاك إلى جانب ألوان الزينة وأدوات الترف وأسباب الإغراء .

لقد كان لنا فى الجاهلية العربية خلائق أزكى ، يرسم معالمها حاتم الطائى وهو يقول لزوجته :

إذا ما صنعتِ الزاد، فالتمسى له أكيلا ! فإنى لستُ آكله وحدى !!
أخاً طارقا ، أو جار بيتٍ ، فإننى أخاف مَذَمَّات الأحاديث من بعدى
وإنى لعبد الضيف مادام نازلا ! وما فىَّ إلا تلك من شيمة العبد !

ما أجمل أن يكون الزوجان أديبين ، أو عالمين ، أو كريمين ، أو شجاعين ! فإن قعدت بأحدهما سَوْرَةٌ عارضة ، أو وسوسة هابطة أسرع إليه الآخر فأخذ بيده ، وسدّده على الطريق .

امراة .. بالف رجل !!

أجيال كبيرة من علماء الأزهر الذين تخرجوا فى كلية أصول الدين مدينون أدبيا وماديا لامرأة محسنة وقفت مالها لله ، وأنشأت منه مؤسسات يتفجر الخير منها منذ عشرات السنين ، وسيبقى كذلك ما شاء الله .

وأنا واحد من هؤلاء الذين نالهم ذلك العطاء الدافق ، فقد انتظمت بين طلاب هذه الكلية من نصف قرن أو يزيد ، وتلقيت الدروس من أفواه جلة من أكابر علماء الأزهر ، وقادة الفكر الإسلامى ، أتيحت لهم فرصة التعليم فى قاعات المبنى الذى أنشأته « الخازندارة » ملحقا بمسجدها الجامع الفخم !

كانت الدراسة تبدأ أول العام بحفل مائج فى المسجد الكبير نستمع فيه إلى توجيه أن نطلب العلم لله لا لدنيا نصيبها أو جاه نستحبّه ، مع تذكير بأئمة العلم الإسلامى وجهادهم الزاكى فى تربية الشعوب وحياطة الحقّ .. ثم يذهب كل

منا إلى صفه وفى نفسه قول أبى العلاء فى صفة فقيه حنفى :

أنفق العمر ناسكاً، يطلب العلم بيحثٍ عن أصله واجتهاد !

لكن من هى الخازندارة ؟ التى بنت كليتنا ؟

لا ندرى عنها شيئاً ! إن البيئات التى عشنا فيها قديما تواضعت على كتمان أسماء النساء ، فلا يجوز أن يذكر اسم الأم ولا اسم الزوجة ! فذلك عيب لا يقع فيه أهل الإيمان ، لعل الاسم عورة كما أن الصوت عورة !!

هل الدين باعث هذا الشعور ؟ كلا ، ففى أول البعثة الشريفة صاح النبى الكريم على الصفا كما ذكرنا من قبل مناديا صفية بنت عبدالمطلب ، وفاطمة بنت محمد يدعوهما إلى معرفة الله والإيمان به وحده !

ولم يكن ذكر أسماء النساء عيبا ولا موضع لغط ! إن التدين الفاسد قد يبعد عن الفطرة مثل أو أبعد مما تفعله الجاهليات الكريهة . .

فلنعد إلى كلية ومسجد الخازندارة بعد هذا الاستطراد ، كانت الكلية للدراسات التى تؤهل للشهادة العالية ، أما الدراسات الأعلى فكانت تنشأ لها حلق داخل المسجد نفسه ، وهى حلقات صغيرة بطبيعتها ، ولا أزال أذكر منظر الشيخ أمين خطاب الرئيس الثانى للجمعية الشرعية بمصر ، وهو يلقى الدروس فى « علل الحديث » ، وكان رحمه الله رجلا بكاء شديد الخشية لله يلتف حوله طلبته وكأنهم فى صلاة خاشعة !!

على أن أعداد الطلبة زادت هنا وهناك ، وربما الإحساس بضرورة البحث عن مكان أوسع ! وهنا سمعت من يقول : إنهم سوف يضمّون مبنى الملجأ إلى الكلية ، ولم أع ما هنالك ثم أدركت أن السيدة المحسنة بنت ملجأ للأيتام يؤويهم ويغذوهم ويكسوهم ، وأرصدت لذلك من مالها ما يسع حاجة المحتاجين !

ولأمر ما لم تنفذ هذه الوصية ! وقال أحد الساخرين : لعله لا يوجد يتامى !

وأحسست أنا أن جملة من الأهداف النبيلة تضيع فى فوضى التنفيذ ، وسوء الرقابة ، وفقدان العلاقة بالله . .

إن الواقفين فعلوا الكثير بيد أن المنفذين فرّطوا وخانوا . . ولما كانت مصائب قوم فوائد عند قوم ، فقد انتقلنا نحن إلى مبنى الملجأ الخالى ، وتلقينا دروسنا فى قاعاته الخالية . .

وأعتقد أن السيدة التى أسدت الجميل لم ينقص ثوابها ذرة ، فقد أدّت ما عليها ، وتقربت إلى الله جهدها .. وما فعله الآخرون بتراثها يلقاهم يوم اللقاء الأخير « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا » .

وفى أثناء تلقينا الدروس بمبنى الخازندارة ، بدأنا نسمع ضجيج بناء عمارة كبيرة فتساءلنا : ما هذا ؟ قالوا : مستشفى الخازندارة !

الحقّ أنى دعوت من أعماق قلبى للمرأة الصالحة ! تبنى معهدا ومسجدا وملجأ ومستشفى ؟ تنشر العلم وتحمى العبادة وتربى اليتامى وتداوى المرضى ؟

أى قلب زكىّ فى صدر هذه المرأة التى أقرضت الله قرضا حسنا .. وادخرت عنده ما ينضر وجهها « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات من تحتها الأنهار » .

الواقع أن النساء الصالحات كُثُرٌ فى تاريخنا ، ما بخلن بمال ولا وقت فى سبيل الله ، وقد أدّين فى صمت ما يعجز عنه الكثيرون ، ويستطيع الباحثون فى بطون التواريخ أن يجدوا أسماء متوارية محرومة من الشهرة لها عند الله مكانة رفيعة لا ينالها غيرهم ..

رحم الله الخازندارة التى استودعت الله مالها ، وجاهدت فى سبيله بتقديم الدواء للمرضى والزاد للجياع ، والعلم لطلابه ، وألهم الرجال والنساء أن يتأسّوا بها .

[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]

فى ضوء القرآن الكريم

- من نفس .. واحدة
- فى المجتمع الاسلامى .. الأول
- حرية قبل الزواج .. وبعده
- المسئولية .. على قدم المساواة !
- المساواة والتفرقة .. للمصلحة !

يكتب هذا الفصل

د . محمد سيد طنطاوى

من نفس .. واحدة

إن المتدبر للقرآن الكريم ، يراه قد خص المرأة بحديث مستفيض ، بين فيه حقوقها وواجباتها ، ورفع من شأنها ، وأثنى عليها بما تستحقه من تكريم ، وشملها فى جميع تشريعاته بالرحمة والعدل ، ووكل إليها أمورا هامة فى حياة المجتمع ، وسوى بينها وبين الرجل فى معظم شئون الحياة ، ولم يفرق بينهما إلا حيث تدعو إلى هذه التفرقة طبيعة كل من الجنسين ، ومراعاة المصلحة العامة للأمة ، والحفاظ على تماسك الأسرة واستقامة أحوالها ، بل ومنفعة المرأة ذاتها .

ومن أبرز مظاهر تكريم القرآن للمرأة ، ووجوه المساواة بينها وبين الرجل ، ما يأتى :

تقرير أن المرأة والرجل من أصل واحد .

وهذه الحقيقة نراها فى آيات متعددة ، منها قوله تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء . . » « الآية ١ من سورة النساء » .

والمراد بالنفس الواحدة هنا : آدم - عليه السلام - .

والمراد بقوله تعالى : « زوجها » حواء .

والمعنى : يا أيها الناس اتقوا ربكم ، بأن تطيعوه فلا تعصوه ، وبأن تشكروه فلا تكفروه ، فهو وحده الذى أوجدكم بقدرته من نفس واحدة ، هى نفس أبيكم آدم ، وأوجد - أيضا - من هذه النفس ومن جنسها زوجها ، وهى حواء .

ثم بين - سبحانه - ما ترتب على هذا الازدواج من تناسل فقال : « وبث منهما رجالا كثيرا ونساء . . » .

والبث معناه : النشر والتفريق . يقال : بث القائد الخيل فى الحرب ، إذا فرقها ونشرها ، ومنه قوله تعالى : « وزرابى مبثوثة » أى : وأبسطة واسعة فاخرة ، منتشرة فى كل مكان ، ومتفرقة فى كل مجلس من مجالس أهل الجنة .

والمعنى : ونشر من هذه النفس الواحدة وزوجها على وجه التوالد والتناسل « رجالا كثيرا ، ونساء كثيرات .

والتعبير بالبث، يفيد أن هؤلاء الذين توالدوا وتناسلوا، عن تلك النفس وزوجها، قد تكاثروا وانتشروا في أقطار الأرض على اختلاف ألوانهم ولغاتهم، وأن من الواجب عليهم مهما تباعدت ديارهم، واختلفت ألسنتهم وأشكالهم، أن يدركوا أنهم جميعا ينتمون إلى أصل واحد، وهذا يقتضي تراحمهم وتعاطفهم فيما بينهم.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا..» «سورة الحجرات: الآية ١٣».

أي: يا أيها الناس إنا خلقناكم جميعا من أب واحد هو آدم، ومن أم واحدة هي حواء، فأنتم كلكم تنتسبون إلى أصل واحد، وجعلناكم شعوبا ذات أعداد كبيرة، وقبائل تمثل جزءا من تلك الشعوب، ليعرف بعضكم نسب بعض، فينتسب كل فرد إلى آبائه، ولتتواصلوا فيما بينكم، وتتعاونوا على البر والتقوى، ولتدركوا جميعا أن أكرمكم عند الله تعالى هو أكثركم خشية لله، واستجابة لأمره، سواء أكان من الرجال أم من النساء.

وشبيه ـ أيضا ـ بهاتين الآيتين في الدلالة على أن الرجل والمرأة من أصل واحد، قوله سبحانه: «فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض..» «سورة آل عمران: الآية ١٩٥».

وقد جاءت هذه الآية الكريمة في أعقاب ذكر جانب من الدعوات الطيبات الخاشعات، التي تضرع بها المؤمنون الصادقون إلى خالقهم..

أي: فاستجاب الله تعالى لهؤلاء المتقين دعاءهم، وبشرهم بأنه لا يضيع عمل عامل منهم سواء أكان ذكرا أم أنثى، لأن الذكر من الأنثى، والأنثى من الذكر، لأنهم جميعا قد انحدروا من نفس واحدة.

فمعنى قوله سبحانه: «بعضكم من بعض»: أن الذكر من الأنثى، والأنثى من الذكر. وقد جاءت الأحاديث النبوية الشريفة، فأكدت هذه الحقيقة، وهي أن الرجل والمرأة من أصل واحد..

ومن هذه الأحاديث ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود والترمذي في سننهما، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «إنما النساء شقائق الرجال».

وقد حرم القرآن الكريم تحريما قاطعا ، ما كان شائعا بين بعض قبائل العرب في الجاهلية ، من تفضيل الذكور على الإناث ، ومن وأد البنات وهن صغار ومن الآيات التي وردت في ذلك قوله تعالى : « وإذا الموءودة سئلت . بأي ذنب قتلت » « سورة التكوير : الآيتان ٨ ، ٩ » .

ولفظ « الموءودة » من الوأد ، وهو دفن الطفلة حية .

أي : وإذا الموءودة سئلت ، على سبيل التبكيت والتقريع لمن قتلها ، لأي سبب من الأسباب قَتلكِ قاتلكِ ؟!

ولاشك أنها لم ترتكب ما يوجب قتلها ، وإنما القصد من ذلك إلزام قاتلها الحجة ، حتى يزداد افتضاحا على افتضاحه . وقد حكى القرآن الكريم في آيات أخرى ، ما كان يفعله بعض أهل الجاهلية من قتلهم للبنات وكراهيتهم لمن وذمهم على ذلك ذما شديدا ، فقال تعالى : « وإذا بُشر أحدُهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم » - أي وهو كئيب حزين - « يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون » أي : أيمسكه على هوان ومذلة . « أم يدسه في التراب ، ألا ساء ما يحكمون » « سورة النحل : الآيتان ٥٨ ، ٥٩ » .

هي منه .. وهو منها !!

وبين سبحانه أنه وحده الذي يملك أن يمنح لمن يشاء الذكور ، وأن يمنح لمن يشاء الإناث ، فقال تعالى : « لله ملك السموات والأرض ، يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثا ، ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ، ويجعل من يشاء عقيما ، انه عليم قدير » « سورة الشورى : الآيتان ٤٩ ، ٥٠ » .

أي : لله تعالى وحده ملك جميع ما في السموات والأرض ، وليس لأحد معه شيء لا اشتراكا ولا استقلالا ، وهو سبحانه يخلق ما يشاء أن يخلقه ، من غير أن يكون لأحد وصاية عليه ، أو اختيار لشيء معين .

ثم بين سبحانه أن أحوال الناس بالنسبة للذرية لا تخلو من أقسام أربعة : فهو سبحانه : إما أن يهب لمن يشاء من عباده الإناث فقط ، وإما أن يهب لهم الذكور فقط ، وإما أن يهب لهم الذكور والإناث معا ، وإما أن يجعل بعضهم عقيما ، أي : لا ذرية له . يقال : رجل عقيم وامرأة عقيم إذا كانا لا ذرية لهما .

وهذه الأحوال الأربعة ، كلها مشاهدة فى حياة الناس ، مما يدل على كمال قدرته ، ونفاذ مشيئته وحكمته ، لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه . قال صاحب الكشاف - رحمه الله - فإن قلت : لم قدم الإناث أولا على الذكور ؟ قلت : قدم الإناث لبيان أنه سبحانه يفعل ما يشاء لا مايشاؤه الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللاتى من جملة ما لا يريده بعض الناس أهم ، والأهم واجب التقديم . . « تفسير الكشاف : ج ٤ ص ٢٣٢ » .

ومن كل ذلك يتبين لنا أن الرجل والمرأة من أصل واحد ، وأنهما متساويان فى طبيعتها البشرية ، وأنه ليس لأحدهما من مقومات الإنسانية أكثر مما للآخر ، وأنه لا فضل لأحدهما على الآخر إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وأن المفاضلة بين أى رجل وأية امرأة إنما تقوم على أمور أخرى خارجة عن طبيعتهما ، وهى الأمور المتعلقة بالكفاية ، والعلم ، ومكارم الأخلاق ، وما إلى ذلك ، كما هو شأن المفاضلة بين الرجال أنفسهم بعضهم مع بعض .

وأن ما كان يفعله بعض أهل الجاهلية من كراهتهم للإناث ومن قتلهن صغارا ، هو من أفحش الفواحش ، وأقبح القبائح ، وأنكر المنكرات . .

وأن منح الإناث فقط ، أو الذكور فقط ، أو الجمع بينهما ، مرده إلى الله تعالى وحده ، ولا مدخل لمشيئة البشر فى ذلك .

ولقد جاءت أحاديث النبى - صلى الله عليه وسلم - فأكدت هذه الحقيقة ، وهى أن المرأة من الرجل والرجل من المرأة ، فقال - كما جاء فى الحديث الشريف الذى رواه الإمام أحمد والترمذى عن عائشة - « إنما النساء شقائق الرجال » .

وأمر - صلى الله عليه وسلم - بإكرام النساء فى أحاديث كثيرة ، ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « استوصوا بالنساء خيرا » وروى الحاكم عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ما أكرم النساء إلا كريم ، وما أهان النساء إلا لئيم » . وفى الصحيحين عن عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال « من ابتلى - أى : اختبر - من هذه البنات بشىء فأحسن إليهن كنَّ له سِترًا من النار » .

ولقد تغنى الأدباء والشعراء بمناقب النساء ، ورقة إحساسهن ، وحنان قلوبهن ، وجميل صبرهن . . وانظر إلى أمير الشعراء أحمد شوقى - رحمه الله - وهو

يرثى مصطفى باشا فهمى ، وقد توفى وترك عددا من البنات ليس من بينهن رجل فيقول :

أأبا البنات ، . رزقتهن كرائما ... ورُزقت فى أصهارك الكرماء
لا تذهبن على الذكور بحسرة ... الذَّكرُ نعم سلالةُ العظماء
إن البنات ذخائرٌ من رحمة ... وكنوز حب صادقٍ ووفاء
والساهرات لعلة أو كَبْرَةٍ ... والصابراتُ لشدة وبلاء
والباكياتك حين ينقطع البكا ... والزائراتك فى العراء النائى
والذاكراتك ماحيين تحدثا ... بسوالف الحرمات والآلاء
عذرا لهن إذا ذهبن مع الأسى ... وطلبن عند الدمع بعضَ عزاء

مساواة .. فى التكاليف الشرعية !

كثيرا ما نرى القرآن الكريم يجمع بين الرجال والنساء فى التكاليف الشرعية ، وفى الأوامر الدينية ، وفى الثواب على الإحسان ، وفى العقاب على المعصية ، وفى توجيه الخطاب إليهما . ومن الأيات القرآنية التى تدل على ذلك ما يأتى :

قال تعالى : « إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات » والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » « الأحزاب : ٣٥ » .

فهذه الآية الكريمة قد اشتملت على عشر فضائل جمع الله تعالى فيها بين الرجال والنساء » وبين أن الثواب العظيم كائن لمن يتحلى بها ، سواء أكان من الذكور أم من الإناث .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما أخرجه الإمام أحمد والنسائى وغيرهما عن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قلت للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما لنا لا نذكر فى القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت : فلم يَرُعنى منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم إلا نداء على المنبر ، وهو يتلو هذه الآية الكريمة .

وأخرج الإمام الترمذى فى سننه عن أم عمارة الأنصارية ، أنها أتت النبى - صلى الله عليه وسلم - فقالت : يا رسول الله ، ما أرى كل شىء إلا للرجال ، وما أرى النساء يذكرنَ بشىء . فنزلت هذه الآية .

وروى ابن جرير عن قتادة قال : دخل نساء على أزواج النبى - صلى الله عليه وسلم - فقلن : قد ذكركن الله تعالى فى القرآن ، وما يذكرنا بشىء ، أما فينا ما يذكر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

والمعنى : « إن المسلمين والمسلمات » : والإسلام : هو الانقياد لأمر الله تعالى ، وإسلام الوجه إليه ، وتفويض الأمر له - عز وجل - وحده .

« والمؤمنين والمؤمنات » : والإيمان هو التصديق القلبى ، والإذعان الباطنى ، لما جاء به النبى - صلى الله عليه وسلم - من عند ربه .

« والقانتين والقانتات » : والقنوت : هو المواظبة على فعل الطاعات عن رضا واختيار وانشراح نفسى ، واطمئنان قلبى .

« والصادقين والصادقات » : والصدق : هو النطق بما يطابق الواقع ، والبعد عن الكذب والقول الباطل .

« والصابرين والصابرات » : والصبر : هو توطين النفس على احتمال المكاره والمشاق فى سبيل الحق ، وحبس النفس عن الشهوات التى تتنافى مع مكارم الأخلاق .

« والخاشعين والخاشعات » : والخشوع : صفة تجعل القلب والجوارح فى حالة انقياد تام لله تعالى ، ومراقبة له ، واستشعار لجلاله وهيبته .

« والمتصدقين والمتصدقات » : والتصدق : تقديم الخير إلى الغير بإخلاص ، دفعا لحاجته ، وعملا على عونه ومساعدته .

« والصائمين والصائمات » : والصوم تهذيب للنفس ، وحمل لها على طاعة الله تعالى ، حتى ترسخ فيها فضيلة التقوى ، والبعد عن كل ما لا يليق .

«والحافظين فروجهم والحافظات » : وحفظ الفرج : كناية عن التعفف والتطهر ، والتصون عن أن يضع الإنسان شهوته فى غير الموضع الذى أحله الله تعالى .

« والذاكرين الله كثيرا والذاكرات » : وذكر الله : يتمثل فى النطق بما يرضيه ، كقراءة القرآن الكريم ، والإكثار من تسبيحه - عز وجل - وتحميده ،

وتكبيره هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات من الرجال والنساء، أعد الله تعالى لهم مغفرة واسعة لذنوبهم، وأجرا عظيما لا يعلم مقداره إلا الله تعالى.

وقال تعالى: «من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» «سورة النحل: الآية ٩٧». أى: من قدم فى حياته العمل الصالح وهو صادق الإيمان، سليم العقيدة، فلنحيينه حياة طيبة فى دنياه، يظفر معها براحة البال، وبسعادة الحال، وبالأمان والاطمئنان.. أما فى الآخرة فسنجزيه جزاء أكرم وأفضل مما كان يعمله فى الدنيا من أعمال صالحة.

وقال سبحانه: «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله، أولئك سيرحمهم الله، إن الله عزيز حكيم. وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، ومساكن طيبةً فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر، ذلك هو الفوز العظيم» «التوبة: الآيتان ٧١، ٧٢».

أى: أن من صفات المؤمنين الصادقين، والمؤمنات الصادقات، أنهم يتناصرون ويتعاونون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، وأنهم يأمرون بكل خير دعا إليه شرع الله تعالى، وينهون عن كل شر تأباه تعاليم الإسلام الحنيف، وأنهم يحافظون على أداء الصلاة فى أوقاتها بخشوع وإخلاص، ويؤدون الزكاة لمستحقيها بدون مَنٍّ أو أذى، وأنهم يطيعون الله تعالى ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى سائر الأحوال بدون ملل أو كلل أو تكاسل..

أولئك المتصفون بتلك الصفات الكريمة من الرجال والنساء، سيرحمهم الله تعالى برحمته الواسعة، إنه عزيز لا يغلبه غالب، حكيم فى كل أقواله وأفعاله.

ثم فصل سبحانه مظاهر رحمته للمؤمنين والمؤمنات أصحاب تلك الصفات فقال: وعد الله تعالى بفضله وكرمه، المؤمنين والمؤمنات، جنات تجرى من تحت بساتينها وقصورها الأنهار خالدين فى تلك الجنات خلودا أبديا.. ووعدهم كذلك «مساكن طيبة» أى: مساكن حسنة، تنشرح لها الصدور، وتستطيبها النفوس «فى جنات عدن» أى: فى جنات ثابتة مستقرة، ولهم فوق ذلك كله: «رضوان من الله أكبر»، أى: لهم رضا الله عنهم، وتجليه عليهم، وتشرفهم

بمشاهدة ذاته الكريمة . « ذلك هو الفوز العظيم » أى : ذلك الذى وعد الله تعالى به المؤمنين والمؤمنات ، هو الفوز العظيم الذى لا يقاربه فوز ، ولا يدانيه نعيم ، ولا يسامى شرفه شرف .

خطاب خاص .. لهن !!

وقال سبحانه : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن » ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن ، أو إخوانهن ، أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن ، أو التابعين غير أولى الأربة من الرجال ، أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » « سورة النور : الآيتان ٣٠ ، ٣١ » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - للمؤمنين بأن يمنعوا أعينهم من النظر عما يحرم أو يكره النظر إليه ، وبأن يحفظوا فروجهم عما لا يحل لهم ، فإن ذلك الذى كلفناك بأمر المؤمنين به - أيها الرسول الكريم - أزكى لقلوبهم ، وأطهر لنفوسهم ، وأنفع لهم فى دنياهم وآخرتهم ، ونحن لا يخفى علينا شىء من تصرفاتهم ، وسنحاسبهم على ما يصنعون فى دنياهم يوم القيامة .

ثم أرشد سبحانه النساء إلى ما أرشد إليه الرجال فقال : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها . . »

أى : وقل أيها الرسول . . للمؤمنات أيضا ، بأن من الواجب عليهن أن يكففن أبصارهن عن النظر إلى مالا يحل لهن ، وأن يحفظن فروجهن عن كل مانهى الله عنه ، ولا يظهرن شيئا مما يتزين به إلا ماجرت العادة بإظهاره كالوجه والكفين . .

ومع أن النساء يدخلن فى خطاب الرجال على سبيل التغليب ، إلا أن الله تعالى خصهن بالخطاب هنا بعد الرجال ، لتأكيد الأمر بغض البصر ، وحفظ الفرج ، ولبيان أنه كما لا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة إلا فى حدود ما شرعه الله ، فإنه لا يحل للمرأة - أيضا - أن تنظر إلى الرجل إلا فى الحدود المشروعة ، لأن علاقته بها كعلاقتها به ، ومقصدها منه كمقصده منها ، ونظرة إحدهما للآخر - على سبيل الفتنة وسوء القصد - تؤدى إلى الشرور والآثام . وقوله تعالى : « وليضربن بخمرهن على جيوبهن » بيان لكيفية إخفاء بعض مواضع الزينة بعد النهى عن إبدائها .

والخُمُر - بضم الخاء والميم - جمع خمار . وهو ما تغطى به المرأة رأسها وعنقها وصدرها . والجيوب : جمع جيب ، وهو فتحة فى أعلى الثياب يبدو منها بعض صدر المرأة وعنقها . والمراد به هنا : محله ، وهو أعلى الصدر .

أى : وعلى النساء المؤمنات أن يسترن رءوسهن وأعناقهن وصدورهن بخمرهن ، حتى لا يطلع أحد من الأجانب على شىء من ذلك .

والمقصود بزينتهن فى قوله تعالى : « ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن » : الزينة الخفية ، وهى ما عدا الوجه والكفين ، كشعر الرأس والذراعين والساقين . . فقد نهى الله تعالى النساء المؤمنات عن إبداء مواضع الزينة الخفية لكل أحد ، إلا من استثناهم سبحانه بعد ذلك ، وهم إثنا عشر نوعا ، بدأهم بالبعول وهم الأزواج . أى : وعلى النساء المؤمنات أن يلتزمن الاحتشام فى مظهرهن ، ولا يبدين مواضع الزينة الخفية منهن إلا لأزواجهن ، أو آبائهن ، أو آباء أزواجهن ، أو أبنائهن ، أو أبناء أزواجهن ، أو إخوانهن أو أبناء إخوانهن . .

ويلحق بهؤلاء المحارم الأعمام والأخوال والمحارم من الرضاع ، والأصول وإن علوا ، والفروع وإن بَعُدوا . . وقوله : « أو نسائهن ، أو ما ملكت أيمانهن ، أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال ، أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء » بيان لبقية الأفراد الذين يجوز للمرأة أن تبدى زينتها الخفية أمامهم .

أى : ويجوز للنساء المؤمنات أن يبدين زينتهن - أيضا - أمام النساء المختصات بخدمتهن ، وأمام ما ملكت أيمانهن من الإماء ، وأمام الرجال التابعين لهن طلبا للإحسان والمعاونة ، والذين فى الوقت نفسه قد تقدمت بهم السن ، ولا رغبة

لهم في النساء ، كما يجوز لهن كذلك إظهار زينتهن أمام الأطفال الذين لا معرفة لهم بعورات النساء .

ثم نهى سبحانه النساء المؤمنات ، عن إبداء حركات تعلن عن زينتهن المستورة ، فقال : « ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن » .

أى : ولا يصح لهن أن يضربن بأرجلهن فى الأرض ، ليسمعن غيرهن من الرجال أصوات حليهن الداخلية ، بقصد التطلع إليهن ، والميل نحوهن بالمحادثة وما يشبهها . فالمقصود بالجملة الكريمة نهى المرأة المسلمة عن استعمال أى حركة أو فعل من شأنها إثارة الشهوة أو الفتنة .

ثم ختم سبحانه هذه الآية الجامعة لأنواع من الآداب السامية بالنسبة للنساء بقوله تعالى : « وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » . ومن ذلك نرى أن هاتين الآيتين قد أمرت النساء بما أمرت به الرجال من غض البصر ، والتحلى بالعفاف ، والبعد عن كل ريبة وشبهة .

وقال سبحانه : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا ، أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » « الأحزاب : ٣٦ » .

قال الإمام ابن كثير : هذه الآية عامة فى جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشىء ، فليس لأحد من الرجال أو النساء مخالفته ، ولا اختيار لأحد فيما قضى الله تعالى به . « تفسير ابن كثير : ح ٦ ص ٤١٧ » .

وهند .. تحاور النبى !

وقد أمر الله تعالى نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يبايع النساء كما بايع الرجال على التمسك بتعاليم الإسلام فقال سبحانه : « يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك فى معروف ، فبايعهن واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم » « سورة الممتحنة : الآية ١٢ » .

في المجتمع الاسلامي .. الأول

وعن مساواة المرأة للرجل في طلب العلم والمعرفة .

لم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة في طلب العلم ، وإنما طلب منهما التزود بالعلم النافع ، وبالثقافة المفيدة ، وبالمعرفة التي تعود عليهم وعلى أمتهم بالخير .

ولقد شرف الله تعالى ـ أهل العلم ـ سواء أكانوا من الرجال أم من النساء تشريفا عظيما، ومن مظاهر ذلك :

أنه سبحانه قرنهم بملائكته في الشهادة له بالوحدانية فقال : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم » « سورة آل عمران : الآية ١٨ » .

وأنه قصر خشيته والخوف منه عليهم ، فقال تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » « سورة فاطر : الآية ٢٨ » .

وبين سبحانه أن العلماء وحدهم هم الذين يعقلون ما يضربه للناس من أمثال فقال : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » « العنكبوت : الآية ٤٣ » .

ونفى ـ عز وجل ـ التسوية بينهم وبين غيرهم فقال : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولوا الألباب » « سورة الزمر : ٩ » .

ورفع درجاتهم عنده فقال : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » « سورة المجادلة : الآية ١١ » .

ثم جاءت أحاديث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأكدت هذا التشريف والتكريم ، ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان ، عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين » .

وروى أبو داود والترمذي عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « من سلك طريقا يبتغي فيه علما ، سهل الله له طريقا إلى الجنة » . . وإن العلماء ورثة الأنبياء . أي : ورثتهم في تبليغ شريعة الله وهداية الناس ، وأن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر » .

ولقد سوى الإسلام بين الرجل والمرأة فى حق التعلم والثقافة لكل منهما ، فقد أعطى المرأة الحق نفسه الذى أعطاه للرجل فى هذه الشئون ، فأباح لها أن تحصل على ما تشاء الحصول عليه من علم نافع ، وأدب رفيع ، وثقافة متنوعة ، ومعرفة مفيدة ، بل أن شريعة الإسلام لتوجب عليها ذلك فى الحدود اللازمة لوقوفها على أمور دينها ، وحسن قيامها بوظائفها فى هذه الحياة . وقد حث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على طلب العلم ، وجعله فريضة عليهن فى هذه الحدود ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « طلب العلم فريضة على كل مسلم » أى : على كل فرد مسلم ، رجلا كان أو امرأة بدون تفرقة بينهما .

ولقد كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجعل وقتا للنساء يخصهن فيه بالإرشاد والتوجيه والتعليم والإجابة على أسئلتهن .

فقد أخرج البخارى وغيره عن أبى سعيد الخدرى قال : قالت النساء للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك ، فوعدهن يوما لقيهن فيه ، فوعظهن وأمرهن ، فكان فيما قال لهن : ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها ، إلا كن لها حجابا من النار . فقالت امرأة : واثنين ، فقال : واثنين » .

وفى حديث آخر : جاءت امرأة إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت : يا رسول الله ، ذهب الرجال بحديثك فاجعل لنا من نفسك يوما نأتى إليك فيه ، تعلمنا مما علمك الله . قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاجْتمعْن يوم كذا وكذا ، فاجتمعْن فجاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعلمهن مما علمه الله » .

وفى المجتمع الإسلامى الأول كان على نساء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسئولية التعلم والتعليم ، قال تعالى مخاطبا أمهات المؤمنين : « واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ، إن الله كان لطيفا خبيرا » « سورة الأحزاب : الآية ٣٤ » . وآيات الله تعالى : هى القرآن الكريم ، والحكمة : هى السنة النبوية الشريفة وكان بيت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مدرسة تعاونه فيها نساؤه ، وبخاصة فيما يتعلق بأمور المرأة المسلمة ، وشئونها الخاصة ، فضلا عن متابعتهن الدقيقة للكتاب والسنة المطهرة .

وقد ذكرت أمهات المؤمنين وغيرهن من الصحابيات ، كثيرا من الأحاديث النبوية فى موضوعات شتى ، وكان للسيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ النصيب الأكبر فى ذلك ، بل كان بعض الصحابة يرجعون إليها إذا ما خفى عليهم شىء يتعلق بالسنة النبوية المطهرة أو بغيرها . .

وقد ذكر الإمام ابن سعد فى طبقاته ج ٢ ص ٣٧٥ نماذج لذلك منها :
ما جاء عن أبى موسى - رضى الله عنه - قال : « ما كان أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يشكون فى شىء إلا سألوا عنه عائشة ، فيجدون من ذلك عندها علما » .

وعن قبيصة بن ذؤيب قال : « كانت عائشة أعلم الناس . يسألها الأكابر من الصحابة » .

وعن أبى سلمة قال : « ما رأيت أحدا أعلم بسنن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا أفقه فى رأى إن احتيج إلى رأى ولا أعلم بآية فيما نزلت ، ولا فريضة ، من عائشة » .

ولقد كانت - رضى الله عنها - تصحح للناس ما أخطأوا فى فهمه ، وترشدهم إلى العلم القويم ، والرأى السليم فى المسألة .

ومن ذلك ما رواه البخارى عن عروة بن الزبير قال : سألت عائشة - رضى الله عنها - فقلت لها : أرأيت قوله تعالى : « إن الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة !!

فقالت له : بئس ما قلت يابن أختى !! إن هذه الآية لو كانت كما أوَّلتها - أى : فسرتها - لكانت : لا جناح عليه أن لا يتطوف بهما ، ولكن الآية نزلت فى الأنصار . كانوا قبل أن يدخلوا فى الإسلام يُهلون لمناة الطاغية - أى : يطوفون أو يتمسحون بهذا الصنم ، وكان قريبا من الصفا والمروة ، فلما أسلموا سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك ، فقالوا يا رسول الله : إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة ، فأنزل الله هذه الآية .

ثم قالت : « وقد سن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الطواف بهما ، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما » .

فأنت ترى أن السيدة عائشة - رضى الله عنها - قد أرشدت ابن اختها عروة بن الزبير ، إلى التفسير الصحيح للآية الكريمة ، حيث بينت له أن الآية الكريمة قد نزلت لتبيح للمسلمين السعى بين الصفا والمروة ، بعد أن كان بعضهم يتحرج

من ذلك ، لأنهم كانوا فى الجاهلية يتمسحون بالأصنام فى هذا المكان ، وهم لا يريدون بعد الإسلام أن يعملوا عملا يذكرهم بما كانوا يفعلونه فى الجاهلية .

بل أن معارفها - رضى الله عنها - لم تكن مقصورة على الشئون الدينية ، أو آداب العرب وأنسابها ، مع قدرتها الفائقة على التعبير والخطابة ، ولكنها اكتسبت معارف فى الطب كانت ترشد المرضى بها ، وحين سئلت من أين هذا العلم لك بالطب أجابت : « أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كثرت أسقامه ، فكان أطباء العرب والعجم يبعثون له ، فتعلمت ذلك منهم » .

وقد ضرب الرسول - صلى الله عليه وسلم - أروع مثل فى تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة فى التسلح بسلاح العلم النافع ، وفى التزود بالمعرفة الصحيحة النافعة ، وفى الحرص على تعلم القراءة والكتابة . .

ومن الشواهد على ذلك ، ما جاء فى كتب السنة والتاريخ أن الشفاء العدوية - وهى سيدة من قبيلة بن عدى - كانت تعرف الكتابة ، وكانت تعلم الفتيات فى الجاهلية ، وكانت حفصة بنت عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما - قد تعلمت عنها الكتابة قبل زواجها بالنبى - صلى الله عليه وسلم - فلما تزوجها - صلى الله عليه وسلم - طلب من الشفاء العدوية ، أن تواصل تعليمها لحفصة ، وأن ترشدها إلى تحسين الخط وتزيينه كما علمتها أصل الكتابة . أخرج الإمام مسلم وأبو داود عن الشفاء قالت : دخل علىّ النبى - صلى الله عليه وسلم - وأنا عند حفصة بنت عمر ، فقال لى : « ألا تعلمين هذه رُقْية النملة كما علمتها الكتابة » ؟ ويقصد - صلى الله عليه وسلم - برقية النملة : تحسين الخط وتزيينه .

ولقد ذكر المرحوم عبدالله عفيفى فى كتابه النفيس : « المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها » . ح ٢ ص ١٣٨ : نماذج متعددة لنساء برزن فى العلوم الشرعية واللغوية والأدبية وغيرها . .

ومن ذلك أنه ذكر أن الإمام الحافظ بن عساكر المتوفى سنة احدى وسبعين وخمسمائة من الهجرة ، كان له من بين شيوخه وأساتذته بضع وثمانون من النساء . ثم قال : « وقد عقد محمد بن سعد فصلا فى كتابه الطبقات ، لروايات الحديث من النساء . أتى فيه على نَيِّف وسبعمائة امرأة ، روين عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو عن الثقات من أصحابه ، وروى عنهن أعلام الدين ، وأئمة المسلمين » .

والأمم العاقلة الرشيدة فى كل زمان ومكان ، هى التى تحرص على نشر العلم النافع بين الرجال والنساء على السواء بدون تفرقة بينهم ، ورحم الله شاعر النيل حافظ إبراهيم ، فقد قال :

من لى بتربية النساء فإنها ... فى الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعبا طيب الأعراق
الأم رَوضٌ إن تعهده الحَيا ... بالرِّى أَوْرَق أيما إيراقِ
الأم أستاذ الأساتذة الألى ... شغَلت مآثِرهم مدَى الآفاق
ربوا البنات على الفضيلة إنها ... فى الموقفين لهن خير وَثاق
وعليكم أن تستبين نساؤكم ... نورَ الحياة ، وعلى الحياء الباقى

حرية .. قبل الزواج وبعده

إن الذى يتأمل فى شريعة الإسلام ، يراها قد سوت بين الرجل والمرأة فيما يسمى بالحقوق المدنية على اختلاف أنواعها ، فأعطت المرأة الحقوق المدنية التى أعطتها للرجل ، لا فرق فى ذلك بين حالها قبل الزواج ، وحالها بعده ، ومن أهم مظاهر ذلك ما يأتى :

أن شريعة الإسلام أحاطت حقوق القاصرات من البنات بسياج من الرعاية والحماية ، فإن كان لها مال خاص انتقل إليها عن أى طريق من طرق التملك المشروعة ، كالميراث والهبة والوصية وما يشبه ذلك ، وجب على وليها أن يحافظ على هذا المال ، وأن يعمل على تنميته واستثماره حتى تكبر فيؤديه إليها كاملا غير منقوص .

وفى مطلع سورة النساء آيات متعددة ، أمرت بالمحافظة على أموال اليتامى ، ومن هذه الآيات قوله تعالى : « وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ، إنه كان حوبا كبيرا » « الآية ٢ » .

أى : عليكم ـ أيها الأولياء والأوصياء ـ أن تحافظوا على أموال اليتامى الصغار ذكورا كانوا أم إناثا ، واحذروا أن تجعلوا ردىء المال لهم ، وجيده لكم ، واحذروا ـ أيضا ـ أن تضموا أموالهم إلى أموالكم فتأكلوها مع أموالكم ، لأن ذلك العمل من باب الظلم العظيم الذى يحاسبكم الله على فعله حسابا عسيرا ، ويعذبكم بسببه عذابا أليما .

وقال سبحانه : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ، فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ، ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ، ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ، فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيبا » « الآية ٦ » .

أى : عليكم ـ أيها الأولياء والأوصياء ـ أن تختبروا اليتامى ، وذلك بتتبع أحوالهم فى الاهتداء إلى ضبط الأمور ، وحسن التصرف فى الأموال ، فإن شاهدتم منهم « رشدا » أى : صلاحا فى عقولهم ، وحفظا لأموالهم ، « فادفعوا إليهم أموالهم » دون تأخير أو مماطلة عن سن البلوغ ، ولا تأكلوها مسرفين فى الأكل ، ومبادرين فى الأخذ خشية أن يكبروا . .

ومن كان غنيا منكم أيها الأولياء ، فليستعفف عن أكل مال اليتيم ، ومن كان فقيرا فليأخذ من مال اليتيم على قدر حاجته ، فإذا دفعتم إليهم أموالهم بعد البلوغ والرشد ، فأشهدوا إليهم عند الدفع ، وكفى بالله تعالى محاسبا لكم ، مراقبا لأحوالكم .

ومتى كانت المرأة بالغة عاقلة ، أباحت لها شريعة الإسلام أن تتعاقد عن طريق البيع أو الشراء أو الهبة أو الوصية ، أو ما يشبه ذلك من العقود ، وأعطتها كامل الأهلية فى تحمل الالتزامات ، وفى تملك ما تريد أن تتملكه من أموال أو عقارات أو منقولات ، وأن تتصرف فيما تملكه بالطريقة التى تختارها ، ولا يصح لوليها أو لزوجها أن يتصرف فى أموالها إلا بإذنها ، أو بتوكيلها إياه فى التصرف نيابة عنها ، ويجوز لها أن تسقط هذه الوكالة متى شاءت ، وأن توكل من تريد وكالته عنها . وهى فى كل ذلك مثلها كمثل الرجل سواء بسواء دون أى تفرقة بينهما ، وهذا مما اتفقت عليه كلمة الفقهاء .

وأباحت شريعة الإسلام للمرأة أن تختار الزوج الذى تريده اختيارا حرا لا إكراه معه ولا إجبار ، وأوجبت على وليها أن يبدأ بأخذ رأيها عند زواجها ، وأن يعرف رأيها قبل العقد ، لأن الزواج معاشرة دائمة ، ولا يدوم الوئام ، ويبقى الود والانسجام ، ما لم يعرف إنها راضية عنه . .

ومن هنا منعت شريعة الإسلام إكراه المرأة - بكرا كانت أم ثيبا - على الزواج ممن لا تريد الارتباط به ، وجعلت العقد عليها دون استئذانها غير صحيح ، وأباحت لها حق المطالبة بفسخ عقد الزواج ، إبطالا لتصرفات الولى المستبد ، الذى عقد عليها بدون إذنها أو رضاها .

وقد ورد فى وجوب استئذان المرأة قبل زوجها أحاديث متعددة ، منها ما رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « الثيب أحق بنفسها من وليها » أى : أحق بنفسها فى أن وليها لا يعقد عليها إلا برضاها - والبكر تستأذن فى نفسها ، وإذنها صُماتها - أى : سكوتها .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لاتُنكَح الأيِّم - أى التى لا زوج لها وسبق لها الزواج - حتى تستأمر - أى : حتى تصرح برضاها ، ولا البكر حتى تستأذن . قالوا : يا رسول الله ، كيف إذنها ؟ قال : أن تسكت » .

وأخرج البخاري وغيره ، عن خنساء بنت خِذام ، « أن أباها زوَّجها وهي ثيب ، فأتت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فرد نكاحها » .

وروى ابن ماجه عن عبدالله بن بريدة عن أبيه قال : « جاءت فتاة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت له : يا رسول الله ، إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته ، فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الأمر إليها - أي : في قبول الزواج أو عدم قبوله - فقالت : قد أجزت ما صنع أبي ، ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس إلى الآباء من الأمر شيء » .

وإذا اختارت المرأة زوجا ، ولم يرض وليها به من غير سبب شرعي ، فلها أن ترفع الأمر إلى القاضي ليتولى عقد زواجها مع من اختارته زوجا . بل لقد ذهب الإمام أبو حنيفة إلى أكثر من ذلك ، فقرر أن للمرأة البالغة الرشيدة ، أن تزوج نفسها بمن تشاء ، بشرط أن يكون كفأ لها ، وليس لوليها حق الإعتراض عليها إلا إذا زوجت نفسها من غير الكفء ، أو كان مهرها أقل من مهر مثلها .. ومن حجج الإمام أبي حنيفة في ذلك : أنها مادامت تستقل بعقد البيع وغيره من العقود ، فمن حقها أن تستقل بعقد زواجها ، إذ لا فرق بين عقد وعقد ..

ضيق المسالك .. ووجوب الاحتياط !

أمرت شريعة الإسلام كل من له علاقة بالنساء من الأزواج والآباء وغيرهم ، أن يسلموا الزوجة حقوقها كاملة غير منقوصة ، سواء أكانت تلك الحقوق تتعلق بالمهور أم بغيرها ، ومن الآيات القرآنية التي قررت هذا المعنى قوله تعالى : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا » « النساء : ٤ » . وقوله : « صدقاتهن » جمع صدُقة - بضم الدال - وهي ما يعطى للمرأة من المهر . وقوله : « نحلة » أي : عطية واجبة . يقال : نحل فلان فلانا كذا ، إذا أعطاه إياه عن طيب نفس بلا مقابل .

والمعنى : وأعطوا النساء مهورهن عطية عن طيب نفس منكم ، لأن هذه المهور قد فرضها الله تعالى لهن ، فلا يجوز أن يطمع فيها طامع ، أو يغتالها مغتال .. وقد كان بعض الأزواج في الجاهلية لا يعطي الزوجة شيئا من مهرها ، ويقول لها : أرثك وترثيني ؟ فتقول له : نعم ، فأبطل الإسلام ذلك .

كما كان بعض الآباء فى الجاهلية يأخذون مهور بناتهن ، ولا يعطونهن شيئا منها ، ولذا كانوا يقولون لمن ولدت له بنت : هنيئا لك النافجة . أى : هنيئا لك هذه البنت التى تأخذ مهرها إبلا فتضمها إلى إبلك ، فتنفج مالك ، أى : تزيده . وقوله تعالى : « فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا » : بيان للحكم الشرعى ، فيما لو تنازلت الزوجة عن شىء من مهرها لزوجها أو لأبيها عن طيب نفس منها . أى : فإن تنازلن لكم عن شىء من مهورهن عن طيب نفس ، وسماحة قلب ، فكلوه أكلا سائغا هنيئا ، خاليا من شبهة الحرام .

قال صاحب الكشاف : وفى الآية دليل على ضيق المسلك فى ذلك ، ووجوب الإحتياط ، حيث بنى الشرط على طيب النفس فقيل ، فإن طبن ولم يقل فإن وهبن أو سمحن ، إعلاما بأن المراعى هو تجافى نفسها عن الموهوب من طيب خاطر .

والمعنى : فإن وهبن لكم شيئا من الصداق ، وتجافت عنه نفوسهن طيبات لا لحياء عرض لهن منكم أو من غيركم ، ولا لاضطرارهن إلى البذل من شكاسة أخلاقكم ، وسوء معاشرتكم فكلوه هنيئا مريئا » « تفسير الكشاف جـ ١ صـ ٤٧١ » . هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية : أنه لابد فى الزواج من مهر يعطى للمرأة ، وهو أمر لا خلاف فيه بين العلماء . . وأن هذا المهر ملك لها ، ومن حقها أن تتصرف فيه كما شاءت ، ولا يجوز لأحد أن يأخذ منه شيئا إلا بإذنها ورضاها .

قررت شريعة الإسلام أن الرجل إذا أراد الانفصال عن امرأته ، لا يجوز له أن يأخذ شيئا من أموالها الخاصة بها إلا برضاها . ومن الآيات القرآنية التى أكدت ذلك قوله تعالى : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا . وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا » « النساء الأيتان ٢٠ ، ٢١ » . أى : وأن أردتم ـ أيها الأزواج ـ أن تتزوجوا بامرأة ترغبون فيها ، مكان أخرى لا ترغبون فيها ، وإنما ترغبون فى طلاقها ، وكنتم قد أعطيتم هذه الزوجة التى تريدون طلاقها مالا كثيرا على سبيل الصداق أو الهبة أو ما يشبههما مما تتحقق معه ملكيتها لهذا المال ، فلا يصح لكم فى هذه الحالة أن تأخذوا من هذا المال

شيئا ، لأنه صار ملكا خالصا لها ، ولأن الفراق كان بسبب من جانبكم وليس من جانب زوجاتكم .

والاستفهام فى قوله تعالى : « أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا » للإنكار والتوبيخ ثم كرر سبحانه هذا التوبيخ لمن يأخذ مالا من زوجته بغير حق فقال : « وكيف تأخذونه » أى : بأى وجه تستحلون هذا المال من زوجاتكم ، والحال أنه « قد أفضى بعضكم إلى بعض » أى : قد اختلط بعضكم ببعض ، وصار كل واحد منكم لباسا لصاحبه « وأخذن منكم ميثاقا غليظا » أى : وأخذ زوجاتكم منكم عهدا وثيقا مؤكدا ، لا يحل لكم أن تنقضوه ، وهو حسن المعاشرة ، والمفارقة بإحسان .

وغنى عن البيان أن الشريعة التى أعطت للمرأة حرية التملك ، والتصرف ، والتعلم ، وغير ذلك من الحقوق ، لا تبخل عليها بحرية التعبير عن رأيها . .
ولعل خير مثال نسوقه لذلك يتعلق بالآية السابقة ، فقد أورد العلماء أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ خطب الناس مرة فقال : ألا لا تغالوا فى مهور النساء ، فإنها لو كانت مكرمة فى الدنيا ، لكان أولاكم بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن رسول الله ما أصدق قط امرأة من نسائه ولا من بناته ، فوق اثنتى عشرة أوقية . .

فقامت إليه إمرأة فقالت : يا عمر يعطينا الله وتحرمنا ؟ أليس الله تعالى يقول : « وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا . . » ؟

فقال عمر : أصابت امرأة وأخطأ عمر ، ثم رجع عن قوله .

الله يسمع .. قولها !

ولقد حكى لنا القرآن الكريم ، قصة تلك المرأة ، التى أتت إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخذت تجادله فى شأن ما دار بينها وبين زوجها ، وتراجعه القول مرة ومرة ، فقال تعالى : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا . وإن الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ،

ثم يعودون لما قالوا ، فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله ، وللكافرين عذابٌ أليم » « سورة المجادلة : ١ - ٤ » . وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها : ما أخرجه الإمام أحمد عن يوسف بن عبدالله بن سلام ، عن خولة بنت ثعلبة قالت : فى شأنى وفى شأن زوجى - أوس بن الصامت - أنزل الله هذه الآيات .

قالت : كنت عنده ، وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه ، فدخل علىّ يوما فراجعته فى شىء فغضب وقال : أنتِ علىّ كظهر أمى .

قالت : ثم خرج فجلس فى نادى قومه ساعة ، ثم رجع ، فإذا هو يريدنى ، فقلت له : كلا والله لا تصل إلىّ وقد قلتَ ما قلت ، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه . .

قالت : ثم ذهبت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحكيت له ما قاله ، فقال - صلى الله عليه وسلم - ما أمرت بشىء فى شأنك حتى الآن ، وما أراك إلا قد حرمت عليه - وكان الرجل إذا قال هذا اللفظ لا تحل له امرأته حتى تنكح زوجا غيره .

قالت : فأخذت أجادل النبى - صلى الله عليه وسلم - وأراجع وأقول : يا رسول الله إنه ما ذكر طلاقا . . ثم تضرعت إلى الله وقلت : اللهم إنك تعلم أن زوجى شيخ كبير ، وأنا امرأة عجوز ، ولا غنى له عنى ولا غنى لى عنه ، وإن لى منه أولادا ، إن تركتهم عنده ضاعوا ، وإن أخذتهم معى جاعوا ، اللهم ففرج كربتى وأحلل عقدتى » .

قالت : وما برحت من جانب الرسول - صلى الله عليه وسلم - حتى نزلت هذه الآيات .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى ما كان يجرى بين الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبين نسائه من مناقشات تدل على إفساح صدره - صلى الله عليه وسلم - لأرائهن عندما كن يطلبن منه الزيادة فى النفقة . .

ومن الآيات التى أشارت إلى ذلك قوله تعالى : « يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا .

وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما » « الأحزاب : ٢٨ ، ٢٩ » .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها : ما جاء فى الصحيحين عن جابر بن عبدالله قال : دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم . قال : فأذن لأبى بكر فدخل .

ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له ، فوجد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالسا حوله نساؤه .

فقال عمر : والله لأقولن شيئا يُضحِك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله . لو رأيتَ بنت خارجة ـ زوجة عمر ـ سألتنى النفقة ، فقمت إليها فوجأت عنقها . .

فضحك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : « هن حولى كما ترى يسألننى النفقة » .

قال : فقام أبو بكر إلى ابنته عائشة يضربها ، وقام عمر إلى ابنته حفصة ليضربها ، وكلاهما يقول : تسألن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما ليس عنده !؟

فقلن : والله لا نسأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيئا أبدا ليس عنده .

ثم نزلت هاتان الآيتان ، فبدأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعائشة فقال لها : يا عائشة ، انى أريد أن أعرض عليك أمرا ، وأحب ألا تتعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك .

قالت : وما هو يا رسول الله ؟

فتلا عليها هاتين الآيتين . فقالت : أفيك أستشير أبوى يا رسول الله ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة .

وفعل أزواج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثل ما فعلت عائشة .

وهكذا نرى أن حرية الرأى كانت مكفولة للمرأة ، حتى فى مناقشة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

وأما حرية العمل للمرأة ، فشأنها فى ذلك شأن الرجل ، إذ العمل حق مشروع لكل من الرجل والمرأة .

وصدق الله إذ يقول : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض . . . » « سورة آل عمران : الآية ١٩٥ » .

وقال سبحانه : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » « سورة النحل : الآية ٩٧ » .

وليس فى شريعة الإسلام ما يمنع المرأة من أن تكون طبيبة ، أو مدرسة ، أو تاجرة ، أو فى أى عمل شريف حلال ، تبغى من ورائه الرزق الحلال الذى يغنيها عن سؤال الناس ، وتؤديه بعفاف واحتشام وستر لما أمر الله بستره منها .

لقد أباحت شريعة الإسلام للمرأة أن تضطلع بالوظائف العامة ، وبالأعمال المشروعة ، التى تحسن أداءها ، ولا تتنافر مع طبيعتها كأنثى ، ولم تقيد هذا الحق إلا بما يحفظ لها كرامتها ، ويصونها عن التبذل ، وينأى بها عن كل ما يتعارض مع الخلق الكريم ، والسلوك الحميم ، وقيامها بواجباتها المنزلية نحو أولادها وزوجها وبيتها ، لأن هذا هو الأصل فى حياتها . .

والمتدبر لأحوال المجتمع الإسلامى فى العهد النبوى وفى عهود الصحابة ، يرى أن النساء كن يقمن بكثير من الأعمال داخل بيوتهن وخارجها .

فهذه أسماء بنت أبى بكر الصديق ، بعد أن تزوجت بالزبير بن العوام - رضى الله عنه - تقول عن نفسها : « كنت أخدم الزبير خدمة البيت كله ، وكنت أسوس فرسه ، وأعلفه . . وكنت أخرز الدلو ، وأسقى الماء ، وأحمل النوى على رأسى من أرض له على ثلثى فرسخ » .

وهذه عائشة وأم سليم - رضى الله عنهما - كانا يخدمان المجاهدين فى غزوة أحد . ففى الصحيحين عن أنس - رضى الله عنه - قال : رأيت عائشة بنت أبى بكر ، وأم سليم ، حين انهزم الناس يوم أحد ، وإنهما لمشمرتان ، ينقزان - أى يحملان - القرب على متونهما ، تفرغانها فى أفواه القوم .

وهذه أمية بنت قيس الغفارية ، أبلت بلاء حسنا فى غزوة خيبر ، فقلدها الرسول بعد الغزوة قلادة تشبه الأوسمة العسكرية فى عصرنا ، فكانت تتزين بها صدرها ، طول حياتها ، وأوصت بدفنها معها بعد وفاتها .

وهكذا نرى أن الإسلام لم يمنع المرأة من أى عمل شريف ، يعود عليها وعلى أمتها بالخير .

المسئولية .. على قدم المساواة !

من المبادىء والأسس التى قامت عليها شريعة الإسلام : معاملة الناس جميعا على قدم المساواة فيما يتعلق بمسئوليتهم عما يقولونه أو يعملونه ، لا فرق فى ذلك بين رجل وامرأة ، أو غنى أو فقير ، أو عدو أو صديق . .

فالعدالة الإسلامية لها ميزان واحد يطبق على الجميع بدون ظلم أو محاباة .

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » « سورة النساء : الآية ١٣٥ » .

وقال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، إعدلوا هو أقرب للتقوى . . » « سورة المائدة : الآية ٨ » .

ومن القواعد المقررة فى شريعة الإسلام ، أن المرأة كالرجل فى تحمل المسئولية ، وفى الكرامة الإنسانية ، ومن الأدلة على ذلك ما يأتى :

أنهما يستويان فى الثواب على الطاعة ، وفى العقاب على المعصية . . قال تعالى : « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » « سورة النساء : الآية ١٢٤ » .

وقال سبحانه : « يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ، وكان ذلك على الله يسيرا . ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما » «سورة الأحزاب : الآيتان ٣٠ ، ٣١» .

وإذا كان سبحانه قد توعد أمهات المؤمنين بالعقاب على المعصية ، وبالثواب على الطاعة ، فأولى ثم أولى غيرهن ممن هن دونهن فى المنزلة . والمعنى : يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة ظاهرة القبح ، يضاعف الله سبحانه لها العذاب ضعفين « لأن المعصية من رفيع الشأن ، تكون أشد قبحا ، وأعظم جرما » وكان ذلك التضعيف للعذاب لهن يسيرا وهينا ، لأنه سبحانه لا يصعب عليه شىء .

ومن يلازم منكن الطاعة ـ يا أمهات المؤمنين ـ ويحرص على مرضاة الله ورسوله ، وتعمل عملا صالحا ، نؤتها أجرها مضاعفا ـ أيضا ـ وهيأنا لها رزقا كريما لا يعلم مقداره إلا الله تعالى .

وهكذا نرى أن الله ـ عز وجل ـ قد ميز أمهات المؤمنين فجعل حسنتهن كحسنتين ، وسيئتهن بمقدار سيئتين لغيرهما ـ أيضا ـ وذلك لعظم مكانتهن ، ومشاهدتهن من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما لم يشاهد غيرهن ، من سلوك كريم ، وتوجيه حكيم .

وقال عز وجل : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » « سورة النور : الآية ٢ » .

وقال سبحانه : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا ، نكالا من الله » أى : عقوبة رادعة من الله لهما « والله عزيز حكيم » « المائدة : ٣٨ » .

وقال تعالى : « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا » « سورة النساء : الآية ١٢٣ » .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما جاء عن قتادة أنه قال أُذكِرَ لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا . فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، فنحن أولى منكم . وقال المسلمون : نحن أولى بالله منكم ، ونبينا خاتم النبيين ، وكتابنا مهيمن وأمين على الكتب التى من قبله ، فأنزل الله هذه الآية .

أى : ليس ما تتمنونه من ثواب ، حاصلا بمجرد التمنى ، وإنما هذا الثواب يحصل بسبب الإيمان والعمل الصالح ، سواء أكان من ذكر أم من أنثى كما ان العقاب يأتى بسبب ارتكاب السيئات سواء اصدرت من ذكر أم من أنثى

وقال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحر بالحر والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى . . » « سورة البقرة : الآية ١٧٨ » .

والمقصود من الآية الكريمة : وجوب تنفيذ القصاص بالعدل والمساواة ، ونفى ما كان شائعا فى الجاهلية من أن القبيلة القوية كانت إذا قُتِل منها العبد ، قتلت فى مقابله حرا ، وإذا قتلت منها أنثى ، قتلت فى مقابلها ذكرا . . وليس المقصود أنه لا يقتل صنف بصنف آخر ، فقد أجمع الفقهاء على قتل الذكر بالأنثى ، وقتل الأنثى بالذكر ، عند اعتداء أحدهما على الآخر .

ولها حق الجوار .. والأمان !!

والمرأة كالرجل فى وجوب صيانة عرضها ، ووجوب عقوبة من يقذفها بالتهم الباطلة .

قال تعالى : « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا » « سورة الأحزاب : الآية ٥٨ » .

أى : والذين يرتكبون فى حق المؤمنين والمؤمنات ما يؤذيهم فى أعراضهم أو فى أنفسهم أو فى غير ذلك مما يتعلق بهم ، دون أن يكون المؤمنون أو المؤمنات قد فعلوا ما يوجب أذاهم ، فقد ارتكبوا إثما شنيعا ، وفعلا قبيحا ، وذنبا ظاهرا بينا ، بسبب إيذائهم للمؤمنين والمؤمنات . وقال تعالى : « إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات ، لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم » « سورة النور : الآية ٢٣ » .

أى : إن الذين يرمون بالفاحشة النساء المحصنات المانعات أنفسهن من كل سوء وريبة ، الغافلات عن أن تدور الفاحشة بأذهانهن ، الكاملات فى إيمانهن ، إن الذين يفعلون ذلك فى حقهن : طردوا من رحمة الله تعالى فى الدنيا والآخرة ، ولهم عذاب عظيم لا يعلم مقداره أحد سوى الله تعالى .

وقال تعالى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون » « النور : ٤ » . أى : إن الذين يرمون النساء العفيفات بالفاحشة ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء يشهدون لهم على صحة ما قذفوهن به ، فاجلدوا - أيها الحكام - هؤلاء القاذفين ثمانين جلدة ، عقابا لهم على كذبهم ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا لفسقهم ، وخروجهم على أحكام شريعة الله تعالى .

فأنت ترى أن الله تعالى قد صان أعراض عباده من الرجال والنساء ، فعاقب القاذفين للمحصنات بثلاث عقوبات .

أولها : حسية ، وتتمثل جلد القاذفين ثمانين جلدة ، وهى عقوبة قريبة من عقوبة الزنا .

وثانيها : معنوية ، وتتمثل فى عدم قبول شهادة هؤلاء القاذفين أو القاذفات .

وثالثها : دينية ، وتتمثل فى وصف الله تعالى لهؤلاء القاذفين والقاذفات بالفسق والخروج عن طاعته .

وما عاقب الله تعالى هؤلاء القاذفين فى أعراض المؤمنين والمؤمنات ، بتلك العقوبات الرادعة ، إلا لحماية الأعراض من ألسنة السوء ، وصيانتها من كل ما يخدش كرامتهم ، ويجرح عفافهم . .

وأقسى شيء على أصحاب العفاف ـ ولاسيما النساء ـ أن تلصق بهن التهم الباطلة ، التى هن بريئات منها ، وغافلات عنها .

والمرأة كالرجل فى تحمل مسئولية ما تكلف به من أعمال . وفى الصحيحين عن عبدالله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : كلكمْ راع ومسئول عن رعيته . الإمام راع ومسئول عن رعيته . والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته . والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها . والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته . فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .

والمرأة كالرجل فى تكريم الله تعالى لهما ، وفى احترام حق جوارهما . قال تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » « سورة الإسراء : الآية ٧٠ » . وغنى عن البيان أن المقصود ببنى آدم الذين كرمهم الله تعالى : ما يشمل ذكورهم وإناثهم . . ولقد احترمت شريعة الإسلام قيمة المرأة ، وأعطتها حق الجوار والأمان كما أعطت ذلك للرجل ، فإذا أجارت أحدا أو أمنته ، وجب على المسلمين ، أن ينفذوا جوارها ، وأن يحترموا وعدها . فقد ثبت فى الحديث الصحيح ، أن أم هانىء بنت أبى طالب ، جاءت إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم فتح مكة فقالت : إنى أجرت رجلين من أحمائى ـ أى : من أقارب زوجى . فقال لها ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء . أى : قد قبلنا جوارك ، وأصبح من أخذ منك الأمان فى أمان ـ أيضا ـ منا .

وهكذا نرى بوضوح أن شريعة الإسلام قد قررت مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة فى كثير من الأمور .

فهما متساويان فى أنهما من أصل واحد هو آدم وحواء .

وهما متساويان فى التكاليف الشرعية التى أوجبها سبحانه عليهم .

وهما متساويان فى طلب العلم ، وفى التزود بالمعرفة النافعة .

وهما متساويان فى حق التملك ، والتصرف ، والتعبير ، والعمل .
وهما متساويان فى تحمل المسئولية وفى الكرامة الإنسانية .
ولا فضل لأحدهما على الآخر إلا بالإيمان والعمل الصالح ، كما قال سبحانه : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

المساواة والتفرقة .. للمصلحة !!

ولكن هل معنى هذه المساواة ، أنه لا توجد أية فوارق بين الرجل والمرأة ؟ الحق أن شريعة الإسلام قد فرقت بين المرأة والرجل فى أمور معينة ، لأن العدالة ، والمصلحة ، وسعادة الجنسين ، وطبيعة كل منهما تقتضى ذلك ، إذ ما بالذات لا يتغير ، والرجل رجل فى خصائصه وتكوينه ، والمرأة امرأة فى خصائصها وتكوينها . .

وقد أشار القرآن الكريم فى مواطن متعددة ، إلى تلك الفوارق بين الرجل والمرأة ، ومن ذلك قوله تعالى : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن ، واسألوا الله من فضله ، إن الله كان بكل شيء عليما » « سورة النساء : الآية ٣٢ » .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما أخرجه الإمام أحمد والترمذى ، عن مجاهد قال : قالت أم سلمة : يا رسول الله ، يغزو الرجال ولا نغزو ، ولنا نصف الميراث ، فأنزل الله هذه الآية .

وقال قتادة : كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبيان ، فلما وُرِّثوا وجعل للذكر مثل حظ الانثيين ، تمنى النساء أن لو جعلت أنصباؤهن كأنصباء الرجال . وقال الرجال : إنا لرجو أن نفضل على النساء بحسناتنا فى الآخرة ، كما فضلنا عليهن فى الميراث ، فنزلت هذه الآية .

والتمنى المنهى عنه هنا : هو الذى يتضمن معنى الطمع فيما فى يد الغير ، والحسد له على ما آتاه الله من مال أو جاه أو غير ذلك مما يجرى فيه التنافس بين الناس . . وذلك لأن التمنى بهذه الصورة يؤدى إلى شقاء النفس ، وفساد الخلق والدين ، ولأنه أشبه ما يكون بالاعتراض على قسمة الخالق العليم الخبير بأحوال خلقه ، وبشئون عباده .

أى : ولا تتمنوا ـ أيها الرجال وأيتها النساء ـ ما فضل الله به بعضكم على بعض فى المال أو فى غيره من شئون الحياة ، لأن حكمة الله قد اقتضت أن يجعل لكل من فريقى الرجال والنساء حظا مقدرا مما اكتسبوه من أعمال ، ونصيبا معينا فيما ورثوه أو أصابوه من أموال . .

وإذا كان الأمر كذلك ، فلا يليق بعاقل أن يتمنى خلاف ما قسم الله له من رزق ، بل عليه أن يرضى به ، فهو سبحانه الذى قسم الأرزاق والخصائص بين الرجال والنساء على حسب ما تقتضيه حكمته ، وهو الذى كلف كل فريق منهم بواجبات وأعمال تليق باستعداده وتكوينه .

وهذه نماذج لأمور فرقت فيها شريعة الإسلام بين الرجال والنساء :

فى مجال العبادات نجد شريعة الإسلام قد أسقطت عن المرأة الصلاة فى حال حيضها ونفاسها ، ولم تكلفها بقضائها بعد طهرها رحمة بها ، ودفعا للمشقة عنها . كذلك أوجبت عليها الفطر فى رمضان فى هاتين الحالتين ، على أن تقضى ما أفطرته بعد شهر رمضان .

ففى الصحيحين عن معاذة قالت سألت عائشة ـ رضى الله عنها ـ ما بال الحائض ـ والنفساء ـ تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ؟ فقالت : كان يصيبنا ذلك مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنؤمر بقضاء الصوم ، ولا نؤمر بقضاء الصلاة . وأيضا فى حال حجها ، لم تكلف شريعة الإسلام المرأة بارتداء لباس الإحرام ، ـ الإزار والرداء ـ سترا لها ، وصيانة لجسدها عن كشف ما لا يصح كشفه منه .

وفى مجال الأعباء الاقتصادية ، خفضت شريعة الإسلام للمرأة جناح الرحمة ، وكفلت لها من أسباب الرزق ما يحميها من التبذل ، ويصونها من شرور الكدح فى الحياة ، وألقت بمعظم هذه الأعباء الاقتصادية على كاهل الرجل . فالمرأة قبل زواجها ، أوجبت شريعة الإسلام نفقتها على أصولها أو فروعها ، أو أقربائها ، مادامت لا تملك من المال ما يكفيها . أما فى حالة زواجها : فنفقتها على زوجها ، حتى ولو كانت تملك من المال ما يغنيها عنه .

وقد فصلت كتب الفقه أحكام نفقة المرأة فى جميع مراحل حياتها ، تفصيلا دقيقا حكيما . وحتى فى حال الطلاق ، فإن الزوج يتحمل جانبا كبيرا من أمواله لزوجته ، إذ عليه أن يدفع لها مؤخر الصداق ، وعليه نفقتها من مأكل ومشرب وملبس ومسكن مادامت فى العدة ، وعليه نفقة أولاده وأجور حضانتهم وتربيتهم . .

وقد أمر القرآن الكريم بحسن معاملة النساء المطلقات ، ونهى عن الإساءة إليهن بأى لون من ألوان الإساءة ، ومن الآيات التى صرحت بذلك قوله تعالى : « أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ،

وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ، فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ، وأتمروا بينكم بمعروف فإن تعاسرتم فسترضع له أخرى » « الطلاق : ٦ » .

أى : أسكنوا النساء المطلقات فى بعض البيوت التى تسكنونها ، والتى فى وسعكم وطاقتكم إسكانهن فيها ، ولا تستعملوا معهن ما يؤذيهن لكى تضيقوا عليهن ما منحه الله لهن من حقوق ، وإن كن فى حالة حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن هذا الحمل ، فإذا ما وضعن حملهن وأردتم أن يرضعن لكم أولادكم منهن ، فعليكم ـ أيضا ـ أن تعطوهن أجورهن على هذا الإرضاع ، وعليكم يا معشر الرجال والنساء أن تتشاوروا فيما ينفع أولادكم ، فإن اختلفتم فابحثوا لأولادكم عن مرضعة أخرى ، حفاظا على حياتهم .

ومن كل ذلك نرى أن شريعة الإسلام قد رفعت عن كاهل المرأة كثيرا من الأعباء الاقتصادية فى جميع مراحل حياتها ، وألقت بها على كاهل الرجل .

وتكون شهادتها .. هى الأصل !

وفى مجال التوارث جعلت شريعة الإسلام نصيب المرأة نصف نصيب الرجل . . قال تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف . . » « النساء : ١١ » . ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه عن جابر بن عبدالله قال : عادنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مرض نزل بى ـ فوجدنى لا أعقل شيئا ، فدعا بماء فتوضأ منه ثم رش علىّ منه فأفقت . فقلت : يا رسول الله ، ما تأمرنى أن أصنع فى مالى ؟ فنزلت هذه الآية .

وأخرج أبو داود والترمذى عن جابر ـ أيضا ـ قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت : يا رسول الله ، هاتان ابنتا سعد بن الربيع ، قُتل أبوهما معك يوم أحد شهيدا ، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يترك لهما شيئا ـ لأن النساء قبل نزول هذه الآية لم يكن لهن نصيب من الميراث ، ولا تنكحان إلا ولهما مال . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « يقضى الله فى ذلك » فنزلت هذه الآية .

فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى عمهما فقال له : أعط ابنتى سعد الثلثين ، ولأمهما الثمن ، وما بقى فهو لك .

والمعنى : يعهد الله تعالى إليكم ويأمركم - أيها المؤمنون - أمرا مؤكدا ، فى شأن ميراث أولادكم من بعد موتكم ، أن يكون نصيب الذكر منهم ، ضعف نصيب الأنثى .

وقد جعل سبحانه نصيب الذكر ضعف نصيب الأنثى بعد أن كانت لا ترث شيئا قبل الإسلام ، لأن التكليفات المالية على المرأة ، تقل كثيرا عن التكليفات المالية على الذكر ، إذ الرجل مكلف بالنفقة على نفسه ، وعلى أولاده ، وعلى زوجته ، وعلى كل من يعولهم ، بينما المرأة - كما سبق أن بينا - نصيبها من الميراث لها خاصة ، لا يشاركها فيه مشارك ، اللهم إلا على سبيل التبرع والمساعدة لغيرها .

وبهذا يتبين مظهر من مظاهر تكريم الإسلام للمرأة ، ورعايته لأمرها .

وفى مجال الشهادة ، احترمت شريعة الإسلام شهادة المرأة فى الشئون النسوية الخاصة التى لا يعرفها إلا النساء ، واعتبرتها هى الأصل فى رد الحقوق إلى أهلها . . وفيما عدا ذلك من الأمور التى تقبل شهادتها فيها كالأموال ، جعلت شهادة المرأتين معادلة لشهادة رجل واحد ، ولا تكون الشهادة كاملة الأركان إلا إذا شارك فيها الرجال .

قال تعالى فى أطول آية فى القرآن ، وهى الآية التى تسمى بآية « الدَّيْن » : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، أن تضل احداهما فتذكر إحداهما الأخرى . . » « البقرة : ٢٨٢ » أى : اطلبوا - أيها المسلمون - شاهدين عدلين من الرجال ، ليشهدوا على ما يجرى بينكم من معاملات ، لأن هذا الإشهاد يعطى الديون توثيقا وتثبيتا . . فإن لم يتيسر رجلان للشهادة ، فليشهد رجل وامرأتان ، ممن تثقون بدينهم وخلقهم . .

وقد جعلنا المرأتين بدل رجل واحد فى الشهادة ، خشية أن تنسى إحداهما ، فتذكر كل واحدة منهما الأخرى ، إذ المرأة لقوة عاطفتها ، وشدة انفعالها بالحوادث ، قد تتوهم شيئا لم يحدث ، فكان من الحكمة أن يكون مع المرأة أخرى فى الشهادة ، بحيث يتذاكران الحق فيما بينهما . فقوله سبحانه : « أن

تضل احداهما » ـ أى : تنسى احداهما ـ « فتذكر إحداهما الأخرى » بيان للحكمة فى أن المرأتين تقومان مقام الرجل الواحد فى الشهادة . .

فضل درجة .. يقابل فضل واجب

وفى مجال المسئولية عن الأسرة : جعلت شريعة الإسلام حق القوامة والرياسة للرجل لا للمرأة ، لأنه هو المكلف بالإنفاق ، وهو الأقوى على تحمل هذه المسئولية . . وهذه القوامة والرياسة للرجل فى الأسرة ، تقوم على المودة والرحمة ، لا على الإستبداد والقسوة . .

وقد قرر القرآن هذه القوامة والرياسة للرجل فى آيات منها قوله تعالى : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم » « البقرة : ٢٢٨ » . أى : وللنساء على الرجال ، مثل ما للرجال على النساء ، فليؤد كل واحد منهما ما يجب عليه نحو الأخر بالمعروف . والمراد بالمماثلة ـ كما يقول الألوسى ـ « المماثلة فى الوجوب لا فى جنس الفعل ، فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه ، أو أعدت طعامه ، أن يفعل لها مثل ذلك ، ولكن يقابله بما يليق بالرجال » .

أى : أن الحقوق والواجبات بينهما متبادلة ، وأنهما متماثلان فى أن كل واحد منهما عليه أن يؤدى نحو صاحبه ما يجب عليه ، حسبما تقره الطباع السليمة ، وتوجبه شريعة الله تعالى . ولكيلا يفهم أحد أن المراد بالمثلية المساواة من كل الوجوه ، قال تعالى : « وللرجال عليهن درجة » .

والدرجة فى الأصل : ما يرتقى عليه من سلم ونحوه . والمراد بها هنا : المزية والزيادة . أى : وللنساء على الرجال من الحقوق ، مثل ما للرجال عليهن ، إلا أن للرجال على النساء مزية وزيادة فى الحق ، بسبب حمايتهم لهن ، وقيامهم بشئونهن ونفقتهن وغيرذلك من واجبات ومسئوليات .

قال بعض العلما : « وإذا كانت الأسرة لا تتكون إلا من إزدواج هذين العنصرين ـ الرجل والمرأة ـ فلابد من أن يشرف على تهذيب الأسرة ، ويقوم على تربية ناشئتها ، وتوزيع الحقوق والواجبات فيها أحد العنصرين .

وقد نظر الإسلام إلى هذا الأمر نظرة عادلة ، فوجد أن الرجل أملك لزمام نفسه ، وأقدر على ضبط حسه ، ووجده الذى أقام البيت بماله ، وأن انهياره خراب عليه ، فجعل له الرياسة . .

هذه هى الدرجة التى جعلها الإسلام للرجل ، وهى درجة تجعل له حقوقا ، وتجعل عليه واجبات أكثر ، فهى موائمة كل المواءمة لصدر الآية ، فإذا كان للرجل فضل درجة ، فعليه فضل واجب .

وقال سبحانه : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن ، واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن ؛ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، إن الله كان عليا كبيرا » (سورة النساء : الآية ٣٤) . قال القرطبى : نزلت هذه الآية فى سعد بن الربيع ، نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن خارجة ، فلطمها ، فقال أبوها : يا رسول الله زوجته كريمتى فلطمها . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لتقتص منه » ، فانصرفت مع أبيها لتقتص من زوجها ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ « إرجعوا هذا جبريل أتانى » . . وأنزل الله هذه الآية . وقوله تعالى : « قوامون » جمع قوّام على وزن فعّال ، للمبالغة ، من القيام على الشيء وحفظه .

يقال : قام فلان على الشيء ، وهو قائم عليه ، وقوام عليه ، إذا كان يرعاه ويحفظه ويتولاه . ويقال : فلان قيم المرأة وقوامها ، للذى يقوم بأمرها ، ويهتم بحفظها وإصلاحها ورعاية شئونها .

أى : الرجال يقومون على شئون النساء بالحفظ والرعاية ، والنفقة والتأديب ، وغير ذلك مما تقتضيه مصلحتهن . ثم ذكر سبحانه سببين لهذه القوامة :

أولهما : وهبى ، وقد بينه سبحانه بقوله : « بما فضل الله بعضهم على بعض » . أى : أن حكمة الله اقتضت أن يكون الرجال قوامين على النساء ، بسبب ما فضل الله به الرجال على النساء ، من قوة فى الجسم ، ومن زيادة فى العلم ، ومن قدرة على تحمل أعباء الحياة وتكاليفها ، وما يستتبع ذلك من دفاع عنهن إذا ما تعرضن للأخطار .

والمراد بالتفضيل هنا : تفضيل الجنس على الجنس ، لا تفضيل الآحاد على الآحاد ، فقد يوجد من النساء من هى أقوى عقلا وأكثر معرفة من بعض الرجال . وقال سبحانه : « بما فضل الله بعضهم على بعض » ولم يقل ـ مثلا ـ بما فضلهم الله عليهن ، للإشعار بأن الرجال من النساء والنساء من الرجال ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : « بعضكم من بعض » وللإشارة إلى أن هذا التفضيل هو لصالح الفريقين ، فعلى كل فريق منهم ، أن يتفرغ لأداء المهمة التى كلفه الله تعالى بها ، بإخلاص وطاعة ومحبة ، حتى يسعد الفريقان .

وأما السبب الثانى فهو كسبى ، وقد بينه سبحانه بقوله : « وبما أنفقوا من أموالهم » . أى : أن الله تعالى جعل الرجال قوامين على النساء ، بسبب ما فضل به الرجال على النساء من علم وقدرة ، وبسبب ما ألزم به الرجال من إنفاق على النساء ، ومن تقديم المهور لهن عند الزواج ، ومن القيام برعايتهن وصيانتهن .

الدواء .. الأخير

ثم شرع سبحانه فى تفصيل أحوال النساء ، وفى بيان كيفية القيام عليهن بحسب اختلاف أحوالهن ، فقسمهن إلى قسمين ، فقال فى شأن القسم الأول : « فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » .

أى : فالنساء الصالحات من صفاتهن أنهن « قانتات » أى : مطيعات لله تعالى ولأزواجهن عن طيب نفس واطمئنان قلب ، ومن صفاتهن كذلك ، أنهن يحفظن فى غيبة أزواجهن ما يجب حفظه من عفاف ومال وغير ذلك مما تقتضيه الحياة الزوجية ، بسبب حفظ الله لهن ، وتوفيقهن للعمل الصالح . هذا هو القسم الأول من النساء ، أما القسم الثانى منهن ، فقد قال سبحانه فى حقه : « واللاتى تخافون نشوزهن » فعظوهن ، واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن ..» .

والمراد بقوله : « نشوزهن » أى : معصيتهن وخروجهن عما توجبه الحياة الزوجية من طاعة الزوجة لزوجها . يقال : نشزت المرأة نشوزا ، اذا عصت زوجها وامتنعت عليه .

وأصل النشوز مأخوذ من النشز ، بمعنى الإرتفاع فى وسط الأرض السهلة المنبسطة ، فشبهت المرأة المتعالية على زوجها بالمرتفع من الأرض . والمعنى : هذا هو شأن النساء الصالحات القانتات الحافظات للغيب بسبب حفظ الله لهن ..

أما النساء اللاتى تخافون عصيانهن لكم ، وترفعهن عن مطاوعتكم ، « فعظوهن » بالقول الذى يؤثر في القلب ، ويوجهن نحو الخير والفضيلة ، بأن تذكروهن بحسن عاقبة الطاعة للزوج ، وسوء عاقبة النشوز والمعصية ، وبأن تسوقوالهن من تعاليم الإسلام وآدابه وتوجيهاته ، ما من شأنه أن يشفى الصدور ، ويهدى النفوس إلى الخير . فإن لم ينفع معهن الوعظ فاهجروهن واتركوهن منفردات فى مكان النوم ، فإن ذلك له أثره النفسى فى نفوس الحرائر من النساء ، فإن لم ينفع معهن الوعظ والهجر ، فاضربوهن ضربا غير شديد ولا مشين ، بحيث لا يكسر عظما ، ولا يشوه جارحة .

أخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن جابر بن عبدالله ، عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال فى حجة الوداع : « واتقوا الله فى النساء ، فإنهن عوان عندكم ـ أى : أسيرات عندكم ـ ولكم عليهن الا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، فإن فعلن فاضربوهن ضربا غير مبرح ـ أى : غير شديد .

وأخرج أبو داود فى سننه عن معاوية بن حيده القشيرى ، أنه قال : يا رسول الله « ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال : أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ، ولا تهجر إلا فى البيت ـ أى : فى مكان النوم ـ .

وجمهور العلماء على أن من الواجب على الزوج ، أن يسلك فى معالجته لزوجته تلك الأنواع الثلاثة على الترتيب .. بأن يبدأ بالوعظ ، ثم بالهجر ، ثم بالضرب ، لأن الله تعالى قد أمر بذلك ، ولأنه تعالى قد رتب هذه العقوبات بتلك الطريقة الحكيمة التى تبدأ بالعقوبة الخفيفة ، ثم تتدرج إلى العقوبة الشديدة ، ثم الأكثر شدة .

ثم بين سبحانه ما يجب على الرجال نحو النساء إذا ما أطعنهم وتركن النشوز والعصيان فقال : « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، إن الله كان عليا كبيرا » .

أى : فإن رجعن عن المعصية إلى الطاعة ، وانقدن لما أوجب الله عليهن نحوكم ـ أيها الرجال ـ فاحذروا التعدى عليهن بأى نوع من أنواع التعدى والظلم ، لأن قدرة الله تعالى عليكم ، أعظم من قدرتكم على أزواجكن ، وسيعاقبكم بالعقوبة الرادعة إذا ما تجاوزتم حدود الحق معهن . فأنت ترى أن

الآية الكريمة قد بينت مراحل التأديب والتهذيب بيانا حكيما جامعا .

فالنساء أمام قوامة الرجال عليهن ، منهن الصالحات القانتات العفيفات ، ومنهن المترفعات المتعاليات العاصيات لأزواجهن . . ومعالجة هؤلاء يكون بالنصح أولا ، فإن لم ينفع كان الهجر ، فإن لم ينفع كان الضرب الذى لا يكسر عظما ولا يشوه وجها ، وهو أى - الضرب - الدواء الأخير الذى لا يلجأ إليه إلا عند الضرورة .

هذه أمثلة لأمور فرقت شريعة الإسلام فيها بين الرجال والنساء ، لأن العدالة والحكمة والمصلحة تقتضى ذلك ، فسبحانه هذه شريعته ، وتلك حكمته .

فى ضوء السنة النبوية

- قبل .. الاســلام !!
- الأسرة .. دعامة المجتمع ..
- الزواج بين التحليل .. والتحريم
- البيت الزوجى .. له أسـرار !!
- دروس .. من حياة أمهات المؤمنين

يكتب هذا الفصل

د . أحمد عمر هاشم

قبـل .. الإســلام

لم تكن للمرأة مكانة تذكر قبل الإسلام ، بل كانت كما مهملا ، لا ينظر إليها إلا لتدبير عمل منزلى أو لدوام النسل البشرى ، بل كانت عند بعض الطوائف فى مرتبة الخادم ، بل إن البعض نظر إليها كالسلعة تباعُ وتشترى . وماكانت بعض الطوائف تُورث المرأة إلا إذا لم يكن لأبيها ذرية من البنين ، وكانوا قبل الإسلام ، وعند الرومان يعتبرون المرأة متاعا يملكه الرجل ، وسلعة له الحق فى التصرف فيها كما يريد ، ويملك من أمرها كل شىء ، حتى حق الحياة .

وكانت بعض قبائل العرب تعتبر ميلاد البنت ، جالبا للحزن والخزى والعار .

وكان ولى المرأة فى الجاهلية يأخذ مهرها ولا يعطيها منه شيئا .

وما إن جاء الإسلام ، وأشرقت تعاليمه العادلة السمحة ، على يدى نبى الرحمة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا وجاء بكتاب مبين هو الفصل ليس بالهزل .

فأتى على هذه العادات الباطلة ، والضلالات الجاهلة من القواعد ، وهدم التقاليد الظالمة ، فنعى على أولئك الذين يحزنون بميلاد المرأة أو يحاولون وأدها وقتلها وهى حية ، ونهاهم عن ذلك .. قال الله تعالى : « وإذا بُشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودًا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بُشر به أيمسكه على هون أم يدسّه فى التراب ألا ساء ما يحكمون » . وقال جل شأنه : « وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت » .

ولقد جاء الإسلام فأعطى المرأة حقها فى الحياة وجعل العدوان عليها عدوانا على نفس بغير حق فحرم وأدها أو قتلها كما حرم امْتهان كرامتها ، وجَعَلَها إنسانا فاعلا فى المجتمع لها كرامتها ومكانتها ، ولها أهميتها ورسالتها فى الحياة .

أعطى الإسلام المرأة حقها فى الحياة وحقها فى الميراث وفى المهر وفى النفقة وفى المسكن والمطعم وأعطاها سائر الحقوق كحق التعلّم ، وحق التملك وحق البيع والشراء والعمل بضوابط تحفظ لها كرامتها وعفافها دون امتهان أو شطط .

وفى رحاب الإسلام عاشت المرأة حياة كريمة محترمة فهى الأم والزوجة والبنت والأخت ، والعمة والخالة والجدة ..

وقد فصلت السنة المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم السلام حقوق المرأة وواجباتها ، حيث قال عليه الصلاة والسلام : « . . ألا إن لكم على نسائكم حقا ، ولنسائكم عليكم حقا ، فحقكم عليهن ألا يوطئن فُرُشكم من تكرهون ، ولا يأذنَّ فى بيوتكم لمن تكرهون ، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن فى كسوتهم وطعامهن » .

وعن معاوية بن حَيْدَةَ - رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله « ما حقُّ زوجة أحدنا عليه ؟ قال : أن تطعمها ! إذا طعِمْت وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولاتُقَبِّح ولا تهجر إلا فى البيت » .

وقررت السنة النبوية حق المرأة فى التعلم بل جعل التعلم فريضة فقال صلوات الله وسلامه عليه : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ، والمراد بالمسلم : الرجل والمرأة ؛ ولذا كانت أمهات المؤمنين مرجعا فى العلم وآيات الله والحكمة .

وتقول السيدة عائشة رضى الله عنها : « نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين » .

وقد وضح الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن أفضل النفقة ، ما ينفقه الإنسان على أهله ، زوجه وأبنائه . . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « دينار أنفقتَه فى سبيل الله ، ودينار أنفقتَه فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقتَه على أهلك ، أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلك » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم » وإذا كان الإسلام قد شرع للمرأة هذه الحقوق ، وأعطاها مكانة عظيمة ، فإنه أمر الزوجة بطاعة زوجها .

ومن الوصايا الحكيمة للمرأة ، وصية أمامة بنت الحارث التى وصت بها ابنتها فى ليلة عرسها حيث قالت : « أى بنية ؛ إنه لوا ستغنت المرأة بغنى أبويها وشدة حاجتها إليها لكنت أغنى الناس عن الزوج ولكن للرجال خلق النساء ، كما لهن خلق الرجال » .

« أى بنية » إنك ■ فارقت الحواء الذى منه درجت إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك ملكا ـ بكسر اللام ـ فكونى له أمة يكن لك عبداً ، واحفظى عنى خلالا عشرا تكن لك دركا وذكرا .

« فأما الأولى والثانية » : فالمعاشرة له بالقناعة وحسن السمع والطاعة فإن القناعة راحة القلب وحسن السمع والطاعة رأفة الرب .

« وأما الثالثة والرابعة » : فلا تقع عيناه منك على قبيح ، ولا يشم أنفه منك إلا طيب الريح ، واعلمى أى بنية أن الماء أطيب الطيب المفقود ، وأن الكحل أحسن الحسن الموجود .

« وأما الخامسة والسادسة » : فالتعهد لوقت طعامه ، والهدوء عند منامه ، فإن حرارة الجوع ملهبة ، وتنغيص النومة مغضبة .

« وأما السابعة والثامنة » : فالاحتفاظ بماله والرعاية على حشمه وعياله ، فإن الاحتفاظ بالمال من حسن التقدير ، والرعاية على الحشم والعيال من حسن التدبير .

« وأما التاسعة والعاشرة » : فلا تفشى له سرا ، ولا تعصى له أمرا ، فإنك إن أفشيت سرَّه لم تأمنى غدره ، وإن عصيت أمره أوْغرتِ صدره . واتقى الفرح لديه إن كان ترِحا ، والإكتئاب عنده إذا كان فرحا ، فإن الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير .

« واعلمى أنك لن تصلى إلى ذلك منه حتى تؤثرى هواه على هواك ورضاه على رضاك ، فيما أحبَبْتِ وكرهت » .

والعلم .. من الحقوق الأساسية

لقد أعطى الإسلام المرأة حقوقًا كثيرة بعد أن كانت مهضومة الحق فى الجاهلية . لقد منحها الإسلام حقها فى الميراث وحقها فى التملك وحقها فى الصداق . وجعل لها أهليتها فى التعاقد وفى إجراء العقود من بيع أو شراء أو رهن أو هبة أو وصِيَّة . . كما سوى الإسلام بين الرجل والمرأة فى شئون المسئولية والجزاء . . والثواب والعقاب . بمعنى أن المرأة التى تعمل صالحا وهى مؤمنة لها جزاؤها فى الدنيا وفى الآخرة كما قال الله جل شأنه : من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »

ويقول سبحانه : « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » . . وسوى الإسلام بينهما فى الحدود وفى سائر أنواع الجزاء والعقوبات ففى حد الزنا وتطبيقه على الرجال والنساء . يقول الله تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » . وفى حد السرقة : يأمر الإسلام بتطبيق قطع اليد للسارق رجلا كان أو امرأة . « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله » .

وكما سوى الإسلام بين الرجل والمرأة فى ذلك فإنه أعطى المرأة حق التعلم والثقافة وأباح لها أن تتعلم العلم والأدب بل إنه يوجب عليها ما يتصل بأمور الدين . لتقف على معرفة الأحكام ولتحسن القيام بالعبادات وسائر الوظائف فى هذه الحياة . وقد جاء فى الحديث . « طلب العلم فريضة على كل مسلم » . وكلمة مسلم تشمل الرجل والمرأة كما يقول العلماء . . ويقول أبو قلابه : « أى رجل أعظم أجرا من رجل ينفق على عيال صغار يعفهم الله أو ينفعهم الله به ويغنيهم . وفى هذا ما يشير إلى أهمية أعداد الأبناء بما ينفعهم ذكورا كانوا أم إناثا ولم يفرق الإسلام فيما منحه من حق « التعلم » للمرأة المسلمة بين أن تكون حرة أو أمة . بل أن توجيهات الإسلام فيما يتصل بشأن الأمة كانت أكيدة . عن أبى بردة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ايما رجل كانت عنده وليدة ـ أى جارية ـ فعلّمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها . ثم أعتقها وتزوجها فله أجران » .

وبهذا رغب الإسلام فى تعليم المرأة وحث عليه ووضح ماله من أثرٍ هام ومثوبة كريمة .

وأن العلم من الحقوق الأساسية التى لا غنى للحياة عنها بحال من الأحوال فإن شئون المجتمعات الإنسانية لا تنهض على المأكل والمشرب والملبس والمسكن فحسب ، فتلك حقوق مادية ، أما تلك الحقوق المعنوية والروحية . فلها أهميتها فى تسيير الحياة وتنظيم تلك الحقوق المادية الأخرى . ولا يتأتى ذلك إلا بتثقيف القلب والروح وتهذيب العقل وتعليمه ولقد طبق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبدأ تعليم المرأة وتثقيفها بما كان يصنعه مع المسلمات من تخصيص يوم لهن يجلس لهن فيه ومن تعليم أمهات المؤمنين .

روى البلاذرى فى « فتوح البلدان » أن الشفاء العدوية وهى سيدة من بنى عدى رهط عمر بن الخطاب كانت كاتبة فى الجاهلية . وكانت تعلم الفتيات . وأن حفصة بنت عمر أخذت عنها القراءة والكتابة قبل زواجها بالرسول عليه الصلاة والسلام . ولما تزوجها عليه الصلاة والسلام طلب إلى الشفاء العدوية أن تتابع تثقيفها ، وأن تعلمها تحسين الخط وتزيينه كما علمتها أصول الكتابة . والعديد من الشواهد يدل على تعلم النساء وظهورهن فى علوم القرآن والحديث والفقه واللغة منذ عصر بنى أمية .

وذكر ابن خلكان أن السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسن بن على بن أبى طالب كان لها بمصر مجلس علم حضره الإمام الشافعى نفسه ، وسمع عليها فيه الحديث .

وروى ابن المقرى فى كتابه « نفح الطيب » أنه كان لابن المطرف اللغوى جارية أخذت عن مولاها النحو واللغة ، ولكنها فاقته فى ذلك وبرعت على الأخص فى العروض حتى سميت « بالعروضية » . وأنها كانت تحفظ عن ظهر قلب كتابى « الكامل » للمبرد و« الأمالى » لابن على القالى .

وإذا تقرر فى الإسلام للمرأة هذا الحق فإنه ينبغى أن ينظر إلى قضية تعليم المرأة نظرة عادلة ومثمرة بحيث لا يطغى تعلمها وحقها فيه . وما أتاحه الإسلام لها لا يطغى هذا على دورها كزوجة وعلى دورها كأم فهذا هو دورها الأصيل وبين الأمومة والزوجية تكون رسالة المرأة فى الحياة وما تعليمها الذى منحه الإسلام لها كحق إلا مكملا وهاديا لدورها ورسالتها .

ومن ناحية أخرى لا يكون قيام واجب على حساب آخر من واجبات الأمومة والزوجية . .

وهكذا كان النساء فى صدر الإسلام فهذه أسماء بنت أبى بكر الصديق تقول : « كنت أخدم الزبير « زوجها » خدمة البيت كله وكنت أسوس فرسه وأعلفه واحتش له . . وكنت أخرز الدلو وأسقى الماء وأحمل النوى على رأسى من أرض له على ثلثى فرسخ » .

وفى الحديث : « . . والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها » .

وإذا كان الإسلام قد منح المرأة تلك الحقوق السابقة فإنه قد أكد واجبها كزوجة وواجبها كأم وسائر ما يجب أن تقوم به من تربية أبنائها . كما ينبغى أن

ننبه إلى حكمة الإسلام العالية فى التفريق بين المرأة والرجل فى بعض الأمور والحقوق وأن ذلك من صميم العدالة الإلهية اتساقا مع طبيعة كل من الجنسين وخصائصه وتكوينه . ودوره فى الحياة وذلك كحقها فى الميراث على النصف من نصيب الرجل وغير ذلك مما قررته الشريعة الإسلامية .

نمـوذج .. من جهـادها

لقد قامت المرأة المسلمة فى ميادين الجهاد بما شرعه الإسلام لها من القيام ببعض الأعمال الهامة التى لا تقل أثرا عن نتيجة القتال فى سبيل الله .

كانت المرأة المسلمة تسقى الماء وتداوى الجرحى وتناول السهام وتثير الحمية وتقوم بخدمة الجرحى وتمريضهم .

وهذا نموذج من نماذج جهادها يقول أنس بن مالك لما كان يوم أحد . . انهزم ناس من الناس عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبو طلحة بين يدى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مجوّب عليه « أى بقيه سلاح الكفار » بما معه من ترس بحجفة « وهى الترس » وكان أبو طلحة رجلا راميا شديد النزع وكَسَّر يومئذ قوسين أو ثلاثا . . قال فكان الرجل يمر معه الجعبة من النبل وهى الكنانة التى تجعل فيها السهام فيقول إنثرها لأبى طلحة قال : ويشرف نبى الله ـ صلى الله عليه وسلم ينظر إلى القوم فيقول أبو طلحة : يا نبى الله بأبى أنت وأمى لا تشرف لا يصيبك سهم من سهام القوم نحرى دون نحرك .

قال : لقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم وانهما لمشمرتان . تنقلان القرب على متونها ثم تفرغانه فى أفواههم ، ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان تفرغانه فى أفواه القوم ، ولقد وقع السيف من يدى أبى طلحة إما مرتين وإما ثلاثة من النعاس .

فلم يحرم الإسلام النساء من كرامة الجهاد ومثوبته ولم يمنعهن أن يشاركن بسقى الماء ومداواة الجرحى .

وهناك جهاد بالمال لإعداد العدة وتجهيز الجيوش وهناك جهاد باللسان لإثارة الحمية ودفع الشبه ورد الإشاعات والدعوة إلى الجهاد وهذه الأنواع يؤدى كل من الرجل والمرأة فيها الرسالة اللائقة بحاله ويقوم حيالها بما يمكنه من عمل .

أما الجهاد بالسلاح والاشتراك فى ضرب العدو فى الميدان فهذا لا يتفق مع طبيعة المرأة وتكوينها ولذا لم يفرضه الإسلام عليها .

ولئن شاركت بعض النساء فى الجهاد فهذا تطوع منهن وليس مفروضًا كما هو الحال بالنسبة للرجال حيث فرض عليهم .

أما ما يمكن للمرأة أن تقوم به فى الجهاد فهو إحياء الحمية والقيام بالتمريض وسقى الماء وكثير من المهام التى يحتاج إليها الجيش فتوفر على الجيش قيام بعض الرجال بهذا العمل ليؤدى الرجال مهمة القتال على أكمل وجه .

وواضح أن هذا الاشتراك من المرأة حيث يكون الأمر فى حاجة إليها وبشرط عدم الإختلاط والفتنة . .

الأسرة دعامة المجتمع

إن إقامة المجتمع الفاضل القوى . لا تكون من السطح الخارجى . دون إرساء دعائم البناء وإقامة الأساس الذى يُبنى عليه المجتمع .

والأسرة هى دعامة المجتمع وهى الخلية الأولى الحية التى يتكون منها أفراده وتتلاقى فيها خلاياه ، والأسرة القائمة على أسس سليمة الصادرة من قيم فاضلة القائمة برسالتها خير قيام .

هى تلك الأسرة التى يرى الأب فيها أنه راعى البيت والقائم على أمره فيه .

وترى الأم أنها مسئولة عن إدارة شئون البيت والأبناء ، وعن غرس الفضائل الحميدة فى نفوس أبنائها وتربيتهم التربية السليمة وتنشئتهم النشأة المستقيمة .

ويرى الأبناء فيها ما ينبغى عليهم من القيام بواجباتهم والنهوض بالحياة سيرا على الجادة وطموحا للمستقبل الزاهر والحياة السعيدة المقبلة عليهم وهم فى أمن نفسى ، واستقرار أسرى وهدًى من الإسلام يؤمنون به ويسعدون بتعاليمه .

إننا حين نرى خلايا المجتمع مكوّنة بهذه المثابة وأن وحداته هى تلك الأسرة ومثيلاتها من الأسر . . وهكذا ، فهو بلاشك مجتمع فاضل قوى له كرامته ومهابته .

ولما كان للأسرة ـ فى الإسلام ـ هذه الأهمية ، وكانت النظرة الحقيقية إليها على أنها أساس المجتمع فقد عنى الإسلام عناية خاصة بشئون الأسرة وبكل ما يتعلق بها من مبادىء تنهض على هداها كما عنى بما يتصل بها من حقوق وواجبات ، وبمالها وما عليها .

ومن المعلوم أن السنة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام مبينة للقرآن الكريم ومفصلة لمجمله وموضحة لمبهمه وأن ما أجمله القرآن فصلته السنة من أحكام العبادات وغيرها فقد ذكرت فى القرآن الكريم على طريق الإجمال . فوضّحها وفصلها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بقوله وفعله .

أما فيما يتصل بشأن الأسرة وما يتعلق بها من حقوق وواجبات وما يتصل بها من أحكام . فقد ذكرها الله سبحانه وتعالى مفصلة فى القرآن الكريم ، من اللحظة الأولى التى يبدأ فيها التفكير فى الزواج قال الله تعالى : « ولا جناح

عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم علم الله انكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرا . . إلا أن تقولوا قولا معروفا ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله وأعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه وأعلموا أن الله غفور حليم » .

فعنى الإسلام بتوضيح كل ذلك فى القرآن من أول لحظة تكوين الزواج وإنشائه إلى أن يتفرق كل منهما بالموت أو بالطلاق وما يتصل بكل الأحوال من أحكام ، وليس كثيرا ما وضحته السنة وبينته بالنسبة لما ورد فى القرآن الكريم من تفصيل أحكام الأسرة . وكان هذا من حكمة الله سبحانه وتعالى عناية بشأن الأسرة لأهميتها فى الحياة ولأنها الأساس الذى يقوم عليه بناء المجتمع وحتى لا تكون أحكامها بعد ذلك عرضة للأهواء والانحراف بها يَمْنَةً أو يَسْرَةً ومحاولة التقصير فى حق من الحقوق أو الإهمال فى واجب من الواجبات .

يقول الأستاذ الشيخ محمد أبوزهرة رحمه الله وإن كانت عناية الإسلام بالعبادات جعلت أحكامها عملية يتولى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تفصيلها لتربى النفوس عليها بالدربة والتهذيب لا بمجرد التلقين ، فعناية الإسلام بالأسرة كانت بالنص الكامل على نظامها ، لكيلا يتصرف الناس بأهوائهم عنها ولكيلا ينكروا تطبيقها ويجعلوا لعقولهم سبيلا للتحكم فى أحوالها ونظامها ولأنها متصلة بالرضا والغضب بين الزوجين والأقارب فكان لابد من ميزان مقرر ثابت يحكم الأهواء ويضع الأمور فى مواضعها » . وهكذا تتضح لنا عناية الإسلام بحقوق الأسرة وواجباتها وبكل مالها وما عليها .

لها طابعها الخاص .. وشخصيتها المستقلة

وللأسرة المسلمة طابعها الخاص الذى تتميز به عن غيرها ولها سلوكها الذى ينبىء عن تمسكها بدينها وتطبيقها لأوامره وسيرها على هداه .

وتتضح ملامح شخصيتها المستقلة من سلوكها ومن آدابها وأخلاقها التى تتخلق بها ، فهى متجملة بالعفة والوقار والحشمة والخلق ومستقيمة على طريق العقيدة الصحيحة التى تؤمن بها ، وهى بشخصيتها المتميزة لا تحيا تابعة لغيرها ولا ظلا لسواها من الأسر الأخرى شرقية كانت أو غربية . . إنها لا تقلد غيرها تقليدا أعمى ولكنها تنهج نهج الحق فى بنائها وفى سلوكها .

ومن آداب الأسرة المسلمة أنها تربى أفرادها تربية إسلامية صحيحة وتعمل الأسرة ـ أبًا وأما ـ جاهدين مع الأبناء على إقامة شعائر الإسلام وتطبيق آدابه وأخلاقه ، متعودين جميعا على فعل الخير والتسابق إلى صنائع المعروف . ويقوم الآباء فى الأسر المسلمة بتربية الأبناء تربية سليمة بعيدة عن الكذب والخيانة بعيدة عن التقاليد الوافدة التى تتنافى مع منهج الدين وآدابه ، وأخلاقه .

وإذا كان على الوالدين بالنسبة للأبناء تلك الحقوق التى تتمثل فى حسن تربيتهم وتنشئتهم وحسن مراعاتهم ، وتوفير كل أسباب الراحة والتكوين لهم ، فإن على الأبناء حقوقا كذلك بالنسبة للوالدين وهذه الحقوق تتمثل فى البر بهما والإحسان إليهما وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالإحسان إلى الوالدين بعد الأمر بعبادته سبحانه إذ يقول : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا » .

وللأسرة علاقات كثيرة بغيرها من الأسر الأخرى ، وأولى هذه العلاقات علاقة أسرتى الزوجين فليس الزواج علاقة رجل بامرأة فحسب ، ولكنه إلى جوار ذلك علاقة وثيقة بين الأسرتين . وقد أعطى الإسلام ولى المرأة حقوقه المشروعة حفاظا على المرأة وحفاظا على الأسرة .

فما قرره الإسلام من الولاية المستقيمة الجادّة والإشراف على المرأة وتوجيهها واختيار الحياة الفاضلة لها كل هذا يتمثل فى الرعاية الحكيمة الرحيمة التى تتحقق بها مصلحة المرأة ومصلحة الأسرة .

وقال الحافظ ابن كثير عند الكلام على قول الله سبحانه وتعالى « الرجال قوامون على النساء » قال يعنى أمراء عليهن أى تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته ، وطاعته أن تكون حسنة وطاعته أن تكون محسنة لأهله حافظة لماله . . وكذا قال مقاتل والسّدى والضحاك .

ومن هنا تتضح لنا نظرة السلف العميقة فى علاقة الأسرتين إن على المرأة أن تكون محسنة لأهل زوجها حتى تظل رابطة المصاهرة نقية صافية تشرق بالود والحب والتعاون وهذا أمر له أهميته الكبيرة وله صداه على علاقة الزوج بامرأته ، وبمدى هذه الرابطة من الزوجة أو من الأسرة الصغيرة تقوى رابطة الأسرتين بينهم جميعا .

ولا تقتصر علاقة الأسرة بغيرها على الأسرة التى ترتبط بها برباط الزواج والمصاهرة وإنما هناك علاقات أخرى شرعها الإسلام وأحاطها بسياج منيع من تعاليمه المحكمة السديدة . فهناك علاقة الأسرة بجيرانها وهى علاقة يبيحها الإسلام فى الحدود المشروعة . ولقد دعا الإسلام النساء المسلمات إلى قبول ما يقدم إليهن مهما كان قليلا وحث على التهادى فقال صلى الله عليه وسلم « يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة » . ومعناه عظم قليل اللحم وهذا فيه زيادة تأكيد على الروابط الأسرية بين الأسرتين .

وقد روى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن رجلا قال له : يا رسول الله : أن فلانة تذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها ، غير أنها تؤذى جيرانها فقال : هى فى النار .

ثم قال : يا رسول الله فلانة تذكر من قلة صلاتها وصيامها وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط ـ أى قطع الجبن ـ ولا تؤذى جيرانها ؟ قال : هى فى الجنة .

الأسـرة تتسـع.. وتمتـد

استهدف الإسلام لبناء الأسرة قُوَّةً وإتساعاً لأنها المجتمع الصغير بل الأمة الصغيرة فما كان المجتمع إلا مجموعة من الأسر ، وما كانت الأمة إلا مجموعة من المجتمعات . فالعناية بالأسرة عناية بالمجتمع وعناية بالأمة بأسرها إذ أن الأسرة هى اللبنة الأولى والأساس الأصيل فى بناء الأفراد والجماعات والأمم والشعوب وفى اتساع الأسرة تقوية لها ، ودعم للمجتمع والأمة فهى بمثابة الرافد القوى للحياة الإنسانية .

وتقوى الأسرة ويشتد أزرها بتقوية روابطها وثبات أصولها . وكلما إتسعت الأسرة وكثر أعضاؤها كانت أكثر قوة ، وأعظم نفعا وإذا ألقينا نظرة إلى ما شرعه الإسلام من وسائل تكوين الأسرة لرأينا إنه يدعو إلى اتساعها وانتشارها وزيادة أعدادها عن طريق النسب والمصاهرة .

قال الله تعالى : « وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا » .

ومن المحرمات التى ذكرها الله تعالى : يتضح سبب قوى من أسباب اتساع الأسرة ، هذا بالاضافة إلى ما تشتمل عليه مقاصد التحريم من حكم أخرى

كالوقاية من الشحناء والخصومات لأصحاب القرابة القريبة جدا ، فصلتهم بالأسرة موجودة وهم ليسوا فى حاجة إلى ربط بينها .

نعم قد لا تكون القرابة قريبة جدا أو قد توشك على الافتراق فيتحقق بالزواج نسب قرب ومودة كأبناء العم وأبناء الخال . أما من كانوا أقرب منهم فصلتهم قوية ولهذا ولغيره من الأسباب الأخرى كانت المحرمات المذكورة فى قول الله تعالى : « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وان تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفورا رحيما » .

ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله : « وتتحقق سعة الأسرة وامتدادها ووثامها بنظامين من النظم التى شرعها لها الإسلام وهما نظام المحارم فى الزواج ونظام الميراث » .

فالإسلام يحرم الزواج بالأقربين : ولا يبيح من ذوى القرابة إلا من أوشكوا أن يكونوا غرباء فالزواج يجمع منهم فى الأسرة من أوشكوا أن يتفرقوا كأبناء العمومة والخؤولة .

ثم يقول: « والمقاصد من هذا التحريم متنوعة لا نحصيها فى هذا المقام أجلها وأجداها توسعة الأسرة ووقايتها من شواجر الخصومة والبغضاء وأن يتحقق بالزواج من أسباب المودة والنسب ما لم يتحقق بالقرابة فيرجع إلى الأسرة من أوشك أن ينفصل عنها ويحرم الزواج بذوى القرابة الحميمة التى لا حاجة بها إلى توثيق النسب والمصاهرة » .

وتأكيدًا لطلب اتساع الأسرة وكثرة أعدادها وزيادة قوتها رغب الإسلام فى اختيار الولود الودود لأنها التى يمكن أن يحصل بها مقاصد الزواج ويمكن معرفة ذلك بالنسبة للبكر بمعرفة أقاربها .

وقد خطب رجل امرأة عقيما فقال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنى خطبت امرأة ذات حسب وجمال وإنها لا تلد فنهاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : « تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة » .

وقد أنكر الإسلام أى تصرف . فيه تضييق لإبعاد الأسرة كالعزوف عن الزواج مثلا ، حتى ولو كان انصرافا للعبادة لأن مثل هذا التصرف يتنافى مع روح الحنيفية السمحة ، ولأن فى الزواج إعفافا للنفس وتكثيرا للنسل وتحقيقا لحكمة الله تعالى فيه .

وعن أنس أن نفرا من أصحاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سألوا أزواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن عمله فى السر : فقال بعضهم : لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم : لا اكل اللحم ، وقال بعضهم : لا أنام على فراش ، . فحمد الله وأثنى عليه فقال : « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا لكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

ولقد عالج الإسلام كل ما يتصل بتكوين الأسرة من ظواهر إذ على ضوئها يهتدى الرجل الى اختيار شريكة حياته وربة بيته ، ويبين الإسلام أن للخاطب أن ينظر إلى من يريد خطبتها ولم يبح له أكثر من هذا ، وأما ما يحدث الآن فى بعض المجتمعات ومن تهاون بعض الأسر فى إباحة اختلاط الخطيب بخطيبته والخلوة بها فحرام لأن المرأة محرمة عليه قبل العقد . وقد نهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن المغالاة فى المهور قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « خير النساء أحسنهن وجوها ، وأرخصهن مهورا » . والمغالاة فى المهور مِعْوَل هدّام يقضى على رغبات الكثير من أهل العفة الراغبين فى الزواج وهو فى نفس الوقت دعوى باطلة ، تساعد على ضياع قسط كبير من أعمار الشباب دون تحقيق سنة الإسلام بالزواج ، بل قد تكون سببا من أسباب انتشار الرذيلة والفوضى الأخلاقية ، التى تهدّد المجتمع بالتصدّع والإنهيار ولا مبرر لها ألا تفاخر بعض الأسر فى تكوين الأثاث وأغلى الرياش مباهاة وظهوراً وقد يدعو الأمر إلى أن تَسْتَدين بعض الأسر الفقيرة . وليس معنى هذا أنّ الإسلام يدعو إلى نقص حق المرأة فى الصداق أو تحريم كثرة المهر؟ لا ، فإن الإسلام إنما يكره تلك المغالاة التى حادَتْ عن الجادّة .

أخرج عبدالرازق من طريق عبدالرحمن السلمى قال عمر : لا تغالوا فى مهور النساء فقالت امرأة : ليس ذلك لك يا عمر ، إن الله يقول : « وآتيم احداهن قنطارا » من ذهب قال وكذلك هى قراءة ابن مسعود فقال عمر امرأة خاصمت عمر فخصمته .

وأخرجه الزبير بن بكار من وجه آخر فقال عمر امرأة أصابت ورجل أخطأ .

ولقد دعا الإسلام إلى الزواج وحث عليه ورغب فيه كل من كان مستطيعا قادرا عليه ، وفى الزواج عصمة للشباب من الزلل والخطيئة ، ثم هو إلى جانب هذا فيه المودة والسكن والرحمة والسعادة والطمأنينة للأسرة والأمان والاستقرار للبيت الزوجى .

ولقد أرشد الله تعالى العاجزين عن مؤن النكاح إلى العفة ووعدهم بعد ذلك إن عفّوا أنفسهم أن يغنيهم من فضله ، لأن فضله أولى بأهل العفة الصالحين قال الله تعالى : « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله » .

وأما إذا لم يستطع الشاب الزواج وعجز عن مؤن النكاح فعليه بالصوم فهو أهم وسائل الاستعفاف لأنه يكسر الشهوة ويكف عن انتهاك الحرمات ، وبالصيام يتعود الإنسان على الفضائل والبعد عن الرذائل .

ومما تجدر الإشارة إليه أن القدرة على الزواج ومئونته أمر نسبى . وهو فى الغالب الأعم ميسور ، وليس المراد به كثرة العرض والمال والعقار حتى لا يتذرع كثير من الشباب أو-الأكثر من أهل الفتاة بالرغبة فى كثرة المال والثراء .

ويبرأ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ممن كان مستطيعا للزواج قادرا على مؤنه ثم يعزف عنه ويتخلى عن سنة ربه وشرعه ففى الحديث « فمن رغب عن سنتى فليس منى » ويقول صلوات الله وسلامه عليه فى شأن من كان موسرا مستطيعا للزواج ولم يتزوج : « من كان موسرا فلم ينكح فليس منا » .

وما ذلك إلا لأن التارك للزواج تارك للعمل بكتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ ليس فى الإسلام ـ أبدا ـ ترك الزواج . وفى الحديث « لا صرورة فى الإسلام » . والصرورة الذى لم يتزوج والذى لم يحج .

ويُعنى الإسلام بتربية المرأة وتعليمها وتهذيبها لتقوم برسالتها فى الحياة خير قيام ولتكون أمًا فاضلة تنشىء جيلا فاضلا . . ولا يترك الإسلام شأن المرأة دون أن يفصل ويوضح شأن بعض النساء من الجوارى وأن لهن فى الإسلام تكريما وعناية فائقة وأن الإسلام نظر إلى شأن الجوارى نظرة إنسانية حانية تتسم بالعطف والحنان والشفقة فيقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين عبد أدّى حق الله وحق مواليه فذلك يؤتى أجره مرتين . ورجل كانت عنده

جارية وضيئة فأدبها فأحسن أدبها ثم أعتقها ثم تزوجها يبتغى بذلك وجه الله فذلك يؤتى أجره مرتين ورجل آمن بالكتاب الأول ثم جاءه الكتاب الآخر فآمن به فذلك يؤتى أجره مرتين » .

الزواج بين التحليل .. والتحريم

وضح القرآن الكريم ، نظم العلاقات الزوجية ، وبين الحلال والحرام ، حتى يكون الرباط الأسرى موثقا وأكيدا ومحترما ومصونا من كل دنس وهوى ، نقيا من أية شائبة من الشوائب .

وبين الله تعالى بعض ما كان معمولا به فى الجاهلية فجاء الإسلام فقضى عليه ونقى مناخ الأسرة من كل فساد وانحراف حتى تقوى أسس البيئة الأسرية من أول وهلة قال الله تعالى : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » .

والمقت فى قوله : « إنه كان فاحشة ومقتا » البغض فهو أمر كبير فى نفسه ، ويؤدى إلى مقت الابن أباه ، بعد أن يتزوج بامرأته فإن الغالب أن من تزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله . .

وكما قال الحافظ ابن كثير : ولهذا حرمت أمهات المؤمنين على الأمة لأنهن أمهات لكونهن زوجات النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو كالأب ، بل حقه أعظم من حق الآباء بالاجماع ، بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله وسلامه عليه .

ثم ذكر القرآن الكريم بعد ذلك المحرمات من النسب . ومن الرضاع والمحرمات بالصهر وذلك فى قول الله سبحانه وتعالى « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم واخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ماقد سلف إن الله كان غفورا رحيما والمحصنات من النساء إلا ما ملكت إيمانكم » .

وفيما رواه ابن أبى حاتم - بسنده - عن ابن عباس قال : « حرمت عليكم سبعُ نسباً وسبعٌ صهراً » . وقرأ : « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم واخواتكم . . . » الآية .

ومن أنواع المحرمات : المشركات من عبدة الأوثان قال الله تعالى : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون » .

ومن أنواع المحرمات كذلك : البغايا : وهن اللاتي يجاهرن بالفاحشة ويتكسبن بها . قال الله تعالى : في تحريم هذا النوع : « الزاني لا ينكح إلاّ زانية أو مشركة والزانية لا تنكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين » .

وأما بالنسبة لما أحله الله تعالى من النساء . فقد ذكره سبحانه بعد بيان المحرمات

في قوله : « وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليما حكيما . ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت إيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضهم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم » .

ومما أباحه الإسلام الزواج بالكتابيات وهذا من تسامح الإسلام الذى لا مثيل له ولكن المسلمة أفضل ، والمسلمة ذات الدين والخلق أفضل من أية مسلمة لا خلق لها ولا دين ، وفى الحديث . . « فاظفر بذات الدين تربت يداك » .

وفى شأن الكتابيات قال سبحانه : « اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

والإسلام دائما وأبدا يوجه المسلمين إلى تخير الزوجة من أطيب العناصر ، من الحرائر المؤمنات ـ العفيفات ـ حفاظا على صلاح الأسرة .

وهذا الضلع .. الأعوج !!

لكل فرد من أفراد الأسرة حقوق وعليه واجبات وقد نظم الإسلام العلاقات الأسرية تنظيما دقيقا محكما ، وجعل لها من الضوابط ما تستقيم به حياتها وتنتظم به فى حياتها الإجتماعية .

وأول أفراد الأسرة وأولاهم بذلك إنما هما الزوجان ، إذ هما الأصل الذى تصدر عنه علاقات الأبناء وتنطلق منه خطاهم فى المجتمع .

ولذا عنى الإسلام بحقوق كل من الزوجين فجعل للرجل حقوقا وعليه واجبات وجعل للمرأة حقوقا وعليها واجبات ، فالغاية المنشودة فى الأسرة الإسلامية تتركز فى حياة المودة والسكينة والهدوء والطمأنينة ، فتسكن الزوجة إلى زوجها ويسكن الزوج إلى زوجته وتشرق بينهما حياة ظليلة تكتنفها المودة والرحمة كما قال الله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » . إنها الحياة الآمنة التى لا تلاحقها المخاوف . الحياة المطمئنة التى لا تزعجها القلاقل . يعيش فيها الزوجان وكل منهما ستار للآخر يقى صاحبه الجنوح إلى الخطأ أو الانحراف ، ويقيه أن يذل ويطغى إن كلا منهما فى أشد الحاجة إلى صاحبه . وهذا هو السِّر فى التعبير القرآنى والله أعلم بقوله سبحانه وتعالى : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » .

وللزوجة حقوقها المشرعة التى صانها الإسلام وحافظ عليها ودافع عنها وتلاحقت وصاياه بها . لما لها من أهمية قصوى فى حياة الأسرة . لها حقوقها من مهر ومأكل وملبس ومسكن ونفقة وغير ذلك مما هو مبسوط فى كتب الفقه الإسلامى بتوسّع ، وحسبنا فى هذه العجالة أن نشير إلى بعض وصايا الإسلام بشأن المرأة فنبه الإسلام إلى ضعفها وإلى أنها خُلقت من ضلع أعوج .

وليس فى وصف الإسلام لها بأنها خلقت من ضلع أعوج ما ينقص من قيمتها . . لقد كفل الإسلام حقوق المرأة فى جميع مراحل حياتها وفى كل أدوار تكوين الأسرة ولا يقلل الوصف من قيمتها ولا يحط من منزلتها .

ولذا نجد أن الحديث الشريف الذى ذكر وصف المرأة بالعوج . قدم هذا الوصف بتأكيد الوصية بالنساء وجعل وصفهن بالعوج كسبب للوصية ليكون الاحتمال الأسرى والتعاطف والمودة ثم أردف الوصف كذلك بالوصية بالنساء .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكت » ، واستوصوا بالنساء خيرا ، فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج وأن أعوج شيء فى الضلع أعلاه ، إن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج استوصوا بالنساء خيرا » .

كما أمر الله تعالى بالمعاشرة بالمعروف فى قوله تعالى : « وعاشروهن بالمعروف » وأشار إلى تعظيم حقوقهن فى قوله : « وأخذن منكم ميثاقا غليظا » .

وكان آخرها وصىٌّ به رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاثا كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفى كلامه جعل يقول : « الصلاة الصلاة » وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون . الله الله فى النساء فإنهن عوان فى أيديكم (يعنى أسراء) أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله » .

ولقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرحم الناس بالنساء والأطفال وفى الحديث يقول أنس رضى الله عنه كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرحمَ الناس بالنساء والصبيان .

وكان صلوات الله وسلامه عليه يزيد على الاحتمال بالمداعبة والمزح والملاعبة تطيبيا لقلوبهن حتى روى أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يسابق عائشة فى العدْو فسبقته يوما وسبقها فى بعض الأيام فقال عليه الصلاة والسلام (هذه بتلك) .

وقالت عائشة رضى الله عنها : « سمعت أصوات الناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون فى يوم عاشوراء فقال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتحبين أن ترى لعبهم ؟ قالت : قلت : نعم . فأرسل إليهم فجاءوا وقام رسول الله بين البابين ، فوضع كفه على الباب ومدّ يده ووضعت ذقنى على يده وجعلوا يلعبون . وأنظر وجعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : حسبك وأقول : اسكت مرتين أو ثلاثا ثم قال : يا عائشة حسبك . . فقلت : نعم فأشار إليهم فانصرفوا » .

وجاء تأكيد الإسلام على حقوق الزوج بصورة حاسمة واضحة غاية فى التأكيد على وجوب طاعته ففى الحديث يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لوأمرتُ أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » .

ومعلوم أن السجود لا يكون إلا لله رب العالمين . ولكن الحديث يؤكد الوصية بحقوق الزوج وطاعته وعدم إهمال حقه . بحالٍ من الأحوال من قِبَلِ المرأة فقد تَعْرض لها أسبابٌ أو تخدعها مغريات فتهمل فى حقه أو تقصر فى طاعته وقد تتغير به الأيام وقد يتغير اليُسر إلى عُسْر وقد تتغير الصحة إلى مرض فأحداث الحياة كثيرة وتقلّبها متعددة لا تقع تحت حصر فهل تتعرض العلاقة الزوجية لهذه المؤثرات وهل تخضع الطاعة لهذه الأسباب ؟ كلا فإن الوفاء خلق إسلامى كبير وكما يُطالَبُ الرجل بحقوقِ المرأة فإن المرأة مُطالَبَةٌ بُحقوق الرجل .

وتسدُّ تعاليمُ الإسلام كلَّ الثغرات أمام تيارات الغضب وعدم الرضا وغير ذلك من المؤثرات والأسباب التى تذهب بشىء من حقوق الزوج لدرجة أن الوصية بتلك الحقوق تأتى صيغتها النهائية التى ليس بعدها وصية ولا تأكيد فوق ذلك .

فإن السجود وهو منتهى الخشوع والخضوع والطاعة لله تعالى . ولذلك كان الإنسان أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد هذا السجود لو كان يصح - إفتراضا وتمثيلا - أن يأمر أحد به أحدًا لأمر المرأة به طاعة لزوجها . ثم يأتى التعليل وتوضيح السبب فى هذا التأكيد . « من عظم حقه عليها » . فالحديث يؤكد الوصية كحق الزوج وطاعته ومن أهم حقوق الزوج محافظة المرأة على دينها وخلقها ومحافظتها على شرفها وكرامتها .

ومحافظتها على مال زوجها وعدم مطالبتها بما وراء الحاجة واتباعها طريق الحلال وتذكيرها لزوجها بذلك . ولقد كان الرجل من السلف . إذا خرج من منزله تقول له امرأته أو ابنته إيَّاكَ وكسب الحرام . فإنا نصبر على الجوع والضر ولا نصبر على النار .

وهَمَّ رجل من السلف بالسفر فكره جيرانه سفره فقالوا لزوجته لم ترضين بسفره ولم يدع لك نفقة ؟ فقالت : زوجى منذ عرفته أَكَّالاً وما عرفته رزاقاً ، ولى رب رزاق ، يذهب الأَكَّال ويبقى الرزاق .

وهذا الموقف من سلفنا لا يعنى تقصير الرجل فى حق بيته ، ولا إهماله القيام بما يجب عليه نحو أسرته من نفقة ، ولكنه يعنى مدى رضا المرأة وقناعتها وعلمها ومعرفتها بأن الرزق من عند الله وما رَاعِى الأسرة إلاّ سَبب مباشر للأكل من هذا الرزق الذى يسوقه الله .

ومن الواجبات على المرأة أن تحفظ مال زوجها ، وإذا أنفقت فى غير إفساد كان لها أجرها على الإنفاق ولزوجها أجره بما كسب ، كما جاء فى الحديث « إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ولزوجها أجره بما كسب » . وفى الحديث « أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة » .

ويُعدّ الإسلام رضا الزوج من أهم أسباب دخول المرأة الجنّة ولكن ينبغى أن نقيد هذا الرضا حيث لا يتعارض مع أمور الدين فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق وإنما المقصود برضا الزوج على المرأة هو حسن معاملتها وأدبها والتزامها بمبادىء الإسلام التى قررها للحياة الزوجية التى تشرق بالمودة والوئام والتفاهم والإنسجام وتتجاوب فيها العواطف المخلصة إلى أنبل المقاصد وأسمى الأهداف الكريمة .

عدل .. غير مستطاع !!

وقد أباح الإسلام التعدد : لحكم عالية ، كان التشريع الإسلامى أقوم وأحكم وأدق ما يكون فيها .

فمن الرجال من قد تكون امرأته غير منجبة ، أو بها مرض ويكون هو شديد الرغبة لتلبية حاجته فى الحلال وقد يكثر النساء حتى يصبح عددهن أكثر من عدد الرجال لاسيما فى أوقات الحروب .

وعندئذ يكون التعدد حلاً لمشاكل عديدة قد تطفو على سطح الحياة الزوجية والأخلاقية بعد ذلك .

ولكن الإسلام حين أباح التعدد أباحه فى حدود واشترط له ما تسكن به حياة الأسرة وتطمئن . فقد كان التعدد فى أمم أخرى غير مقيد ولا محدّد قبل الإسلام قد يبلغ أكثر من أربع زوجات ولكن الإسلام حدّده بحيث لا يزيد العدد عن أربع ومن دخل الإسلام ومعه أكثر من أربع أُمِر بفراق ما زاد عن العدد واختيار أربع فقط فعندما أسلم غيلان الثقفى ، وتحته عشر نسوة . قال له النبى - صلى الله عليه وسلم - « اختر منهن أربعا وفارق سائرهن » .

ثم إن الإسلام إشترط لمن يريد أن يتزوج بأكثر من امرأة ان يأنس فى نفسه القدرة على القيام بالعدل بين الزوجات العدل فى المسكن والملبس والمطعم والنفقة والمبيت ونحو ذلك . ومن لم يأنس فى نفسه القدرة على العدل بين زوجاته

فليس له أن يعدّد ؛ لأن الظلم حرام ، وتفريطه فى الحقوق حرام لأن الله تعالى يقول : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » وحذر الإسلام من التفريط فى حقوق الزوجات . ومن الظلم وأن عاقبة الظلم وعدم العدل أليمة ونهايته سيئة فى الدنيا وفى الآخرة ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « من كانت له امرأتان ولم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط » . وفى رواية أخرى وشقه مائل . رواه أصحاب السنن .

وكل أمر يستطيع أن يعدل الزوج فيه بين نسائه فلا يعدل فيه يدخل فى نطاق هذا التحذير والتهديد الوارد فى الحديث ..

وأما الأمر الذى لا يستطاع العدل فيه فإنه مَعْفوٌ عنه وذلك هو الميل القلبى . يقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل » . ورسول الله صلوات الله عليه وسلامه وهو القدوة كان يعدل بين نسائه غاية العدل ، وكان إذا أراد سفرًا أقرع بينهن أى أجرى القرعة بين أمهات المؤمنين فأيتهن خرج سهمها سافر بها .

وما ذلك إلّا للحفاظ على المشاعر والأحاسيس وصيانة للقلوب والنفوس .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقسم ويعدل ويقول : « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك يعنى القلب » .

وحتى فى مرضه صلوات الله وسلامه عليه فإنه لم يشأ أن يكون فى بيتٍ واحدٍ أو عند واحدةٍ من أمهات المؤمنين دون رضا الباقيات فنراه قد استأذنهن أن يكون عند عائشة رضى الله عنها . فأذِنَّ له صلى الله عليه وسلم ..

فعن عائشة رضى الله عنها قالت : بعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم فى مرضه إلى نسائه فاجتمعْنَ فقال : إنى لا أستطيع أن أدور بينكن فإن رأيْتُنَّ أن تأذَنَّ لى أن أكون عند عائشة فَعَلْتُنَّ فأذِنَّ له .

ونشوز .. بعض الرجال !!

لشئون الأسرة أهميتها الكبيرة فى سائر الجوانب المتعددة وقد عنى القرآن الكريم بها وحفلت آياته البينات بما يوضح حقائقها ويضىء الطريق الصحيح

أمام المجتمع الإسلامي . ليتحقق العدل الإلهي فيما يتصل بسائر الحقوق والواجبات .

قال الله تعالى : « ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما » .

وقد كان الناس يستفتون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى النساء . وما يتعلق بهن من ميراث . فيرد الله سبحانه وتعالى على طلبهم هذا . . ويأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبين لهم . . ويخبرهم بأن الله بنفسه هو الذى سيفتيهم : « قل الله يفتيكم فيهن » وذلك بما جاء فى القرآن من أحكام الميراث كما أنه يفتيهم فى شأن يتامى النساء . . حيث لم يعطوهن فى الجاهلية حقوقهن . وبقيت هذه الرواسب فى النفوس فسألوا عنها . .

وقد كان أولياء اليتامى يرغبون عن نكاحهن إذا كن دميمات ويعضلوهن أن يتزوجن طمعا فى الميراث ، وكذلك بالنسبة للصغار المستضعفين من الولدان فأمرهم الله تعالى بالعدل فى المهر وفى الميراث . . وإذا لم يحققوا العدل فإن الله عليم بكل أفعالهم وتصرفاتهم وظلمهم فيجازيهم على ذلك .

وعن عائشة رضي الله عنها « ويستفونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن » . . إلى قوله « وترغبون أن تنكحوهن » قالت عائشة . هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها فأشركته فى ماله حتى فى العذق فيرغب أن ينكحها أى إنه لا يريد زواجها لدمامتها ويكره أن يزوجها رجلا فيشركه فى ماله بما شركته فيعضلها فنزلت الآية .

وتكشف لنا آيات القرآن الكريم عن ظاهرة النشوز فى بعض أشكالها . . فإنها كما تكون فى المرأة تكون فى الرجل فما حكم من توقعت من زوجها نشوزا . . وخافت ترفّعه عليها والتقصير فيها لبغضها أو الإعراض عنها بوجهه ؟

عن هذا يجيب القرآن الكريم فى قول الله تعالى : « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزًا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » .

إن القرآن الكريم يجيب على مثل ذلك بقوله : « فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا » فى القسم أو فى النفقة مثلا : فتترك الزوجة له شيئا رغبة فى الاستمرار والبقاء هذا إذا كانت راضية بذلك وإلا فعلى الزوج حينئذ أن يوفيها حقها أو يفارقها .

ويوضح الله تعالى .. بأن الصلح أفضل الحلول وخير من الفرقة ومن الإعراض والنشوز كما يكشف ـ القرآن ـ عما طبعت عليه النفس البشرية وما هو كَامِنٌ فى جِبِلَّتها من شدة الحرص والشح « وأحضرت الأنفس الشح » ولكن ليس معنى هذا الوقوف عند حدود هذا الجانب المادى .. ولا أن يكون التعامل بإعتبار ذلك فحسب .

فهناك جانب آخر أَسْمى وأَرْقى .. إنه جانب الإحسان والتقوى الذى يمسك بزمام الإنسان ويوقظ فيه الضمير الدينى والإحساس بأن الله عليم بكل شىء خبير بكل مايعمله « وان تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » .

فإذا تجشم الرجل مشقة مغالبة النفس ومصابرتها على ما يكره من زوجته وأعطاها حقها وعاملها بالحسنى فله عند الله العليم الخبير أوفر الجزاء .

ثم يضع الإسلام حقيقة واقعية أمام العين لا يستطيع الإنسان أن ينكرها بحال من الأحوال وهى أن النفس ذات ميول .. فقد يميل الإنسان إلى احدى زوجاته أكثر من الأخرى وبالتالى لا يستطيع أن يحقق المساواة بين نسائه من جميع الوجوه فإذا مال إلى احدى زوجاته فلا يميل كل الميل فى القسم والنفقة وغير ذلك مما يترتب عليه أن يترك الأخرى تشبه المعلقة .. فلا هى أيِّمٌ ولا هى ذات زوج .

فعلى الزوج أن يقوم بالعدل والإحسان . والإصلاح فى القسمة وألا يجور أو يغبن فإنه إن سوى فى الحقوق والأمور المتعلقة بالقسمة والنفقة وغير ذلك مما هو ظاهر وواضح فإن الله يغفر له ما لا يملكه من الميل الذى فى قلبه ويرحمه إذا سار على العدل والإحسان قال الله تعالى : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما » .

أما عندما تستحكم الجفوة بين القلوب .. فإن الإسلام لا يرضى للعلاقة الزوجية أن تتأجج بالنفور والكراهية .. وتظل مجرد علاقة فى الظاهر لا غير بينها

هى فى الحقيقة انفصال وجفاء لا يكره الإسلام احد الزوجين على حياة لا تطاق فعندما تنفد كل وسائل التوفيق والإصلاح والمودة والرحمة . . أو الصبر والإحسان . عندما ينفد ذلك كله . . فإنه لا مفر من الفراق وحينئذ يتولى الله الأمور بحكمته وبما يراه أصلح . فهو يعد كلا منهما بأن يغنيه من فضله . « وإن يتفرقا يغن الله كُلًا من سعته وكان الله واسعا حكيما » .

ثم تعقب آيات الله البينات على ما سبق من تقرير المبادىء الإلهية وما يتصل بأحكام الأسرة وشئونها مبينة أن الله بيده مقاليد كل شيء وهو المالك والحاكم والمتصرف فى كل ما يتصل بشئون السموات والأرض .

فجدير بعباده المخلوقين أن يتقوه . . ويطيعوه . . ويخافوا عذابه قال تعالى : « ولله ما فى السموات وما فى الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله غنيا حميدا » . وهذا التعقيب الذى جاء بعد بيان ما يتصل بشئون الأسرة من أحكام ومبادىء يدل على أهمية شئون الأسرة وما يتصل بها بحيث لا يصح التهاون فيها ، أو التفريط فى حق من حقوقها .

البيت الزوجي .. له أسرار

للعلاقة الزوجية حرمتها ومكانتها ، فهى علاقة سَكَن ومودّة ورحمة ، فدائرة العلاقة الزوجية فى رحابتها وامتدادها تنبثق منها معانٍ رفيعة رائدة . . فهى ليست محصورة فى الجانب الحسى ، وعلاقة الجسد ، بل إن وراءها المحافظة على بقاء النوع الإنسانى والاستعفاف والترابط القوى بين كل من الزوجين وبين كل من الأسرتين . مما يعمل على إثراء التواصل ، وتنمية وشائج القربى والرحم . .

وهذه الصلات ومالها من روابط وثيقة ، تترعرع فى ظلال المودة والرحمة التى أفاءها الله تعالى على تلك العلاقة الوثيقة . ولما كان للعلاقة الزوجية هذه المنزلة ، كانت جديرة بأن تحاط برعاية فائقة وعناية بالغة ، فكل من الزوجين ، زينة وستار للآخر وسكن ولباس كما قال الله سبحانه : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » .

وعن ابن عباس وغيره فى معانى هذه الآية « هن سكن لكم وأنتم سكن لهن » .

وقال الربيع عن أنس : « هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن » .

ولهذا الرباط المقدس حرمته التى يجب أن تصان وأن تحفظ وتستمر بحيث يصان البيت الزوجى عن كشف شىء منه ، بل يظل داخل هالة المودة والرحمة والمحافظة والرعاية . فالمرأة المسلمة الصالحة مطيعة لزوجها ، تحفظه فى غيبته فى نفسها وماله قال الله تعالى : « فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » .

وفيما رواه ابن جرير عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك وإذا أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالك » . قال : ثم قرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الآية « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » .

وليس أمر المحافظة على هذا الجانب فحسب . بل ثمة جوانب أخرى يجب الوقوف عندها . فمن ذلك أسرار المآكل وغيره مما يكون عادة فى البيت من

والشكوى ، وإن كان كثيرا ، فليكن الشكر لواهب النعمة ، وعدم التباهي بذلك والتحدث لاسيما إذا كان الجار فقيرا . فإن لم يعطه منه ، فلا أقل من أن يحتفظ بما عنده ولا يخرج بالفاكهة الأطفال ليغيظوا بها أطفال الفقراء .

ومن الجوانب الهامة والجديرة بالمحافظة عليها .. ما يحدث من الخلافات الزوجية وهذا جانب له أهميته في وجوب تضييق دائرة الخلاف ومحاولة علاجها بين الزوجين دون تسرب خبر منها للناس أو ارتفاع صوت أو صياح .

وقد شرع الإسلام لمعالجة أحوال النشوز والخلاف ما يكفل الأمن السريع للبيت الزوجي وهو علاج يتم ـ فقط ـ بين الزوجين بحيث لا تتطاير به الأسباب ولا تنكشف معه الأسرار ، وإنما يتم العلاج في سرية تامة وبقواعد دقيقة ومحكمة .

وأما عند توقع الخطر ، وخوف الشقاق ، وتعرض البيت الزوجي لأسباب التصدع والانهيار ، وحدوث الفرقة ، وما يترتب عليها من تعرض الطفولة البريئة إلى الضياع ، ففي هذا الموطن يكون تدارك الموقف وعلاجه على نحو آخر . يحدثنا عنه القرآن الكريم في قول الله تعالى : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا » .

وهنا ندرك الحكمة العالية في التعبير بقوله ـ حكما ـ فمن طبيعته ومن شأنه وشرطه أن يكون عادلا صالحا محبا للخير .

وعن ابن عباس : أمر الله عز وجل أن يبعثوا رجلا صالحا من أهل الرجل ورجلا مثله من أهل المرأة ، فينظران أيهما المسيء وفي تسميتهما ـ بالحكمين ـ ما يشير إلى أنهما يحكمان بالعدل ويتوخيان الصالح العام ، للزوجين وللأبناء ، ويحرصان على خير البيت الزوجي ، ومن شأن ـ الحكم ـ أن يحكم بغير رضا المحكوم عليه فلا يؤثر عليه الهوى « ولا تؤثر عليه الانفعالات النفسية لأن رائده العدل والتوفيق بين القلبين المتنافرين » .

ولنا ـ هنا ـ أن نتساءل : هل هذان الحكمان قاضيان من جهة الحاكم ؟ فيحكمان وإن لم يرض الزوجان ؟ أو أنهما وكيلان من جهة الزوجين ؟ يرى بعض العلماء أنهما وكيلان من جهة الزوجين ؟ كما قال الله سبحانه : « فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها » وإن من شأن من هو من أهل الإنسان أن يكون حريصا

على الأسرار ومحاولة دفنها ، وعدم التشهير بها ، ومن كان من أهل الإنسان كذلك فشأنه إنه مؤتمن على الأسرار ، وحريص على حب الخير والتوفيق والإصلاح .

إن الإسلام حرص على صيانة الأسرار وعدم تعرض أي الزوجين للحرج ، حين يكون الحكم أجنبيا عنه فيخدش الحياء أو تتعرض كرامة ومكانة أحدهما إلى الاهتزاز .

وإذا انتقلنا إلى جانب آخر ـ غير هذا ـ من جوانب الأسرار الزوجية ، وهو جانب العلاقة الخاصة بين الزوجين . نجد إن الإسلام قد صان هذا الجانب صيانة قوية وحذّر من كشف هذا السر أو الاستهانة بالتحدث به ، كما هو شأن المجتمعات البعيدة عن روح الإسلام ، والتي يتناقلها فيها ضعاف الدين والخلق والحمقى . .

عن أسماء بنت يزيد أنها كانت عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والرجال والنساء قعود عنده فقال : لعل رجلا يقول ما فعل بأهله ، ولعل امرأة تخبر بما فعلت مع زوجها ، فأرَمَّ القوم (أي سكتوا وجلين) ، فقلت : أي والله يا رسول الله إنهم ليفعلون وإنهن ليفعلن ، قال : « فلا تفعلوا ، فإنما مثل ذلك مثل شيطان لقى شيطانة فغشيها والناس ينظرون » . إن تلك العلاقة بين الزوجين أمانة ، فيجب على كل منهما أن يصونها ، فمن أخطر ما يكون خيانة تلك الأمانة وإفشاء هذا السر ، حين يُفضى إلى امرأته وتفضى إليه ثم ينشر سرّها . .

دفعا للشبهات .. وظن السوء

من التشريعات الإسلامية لصيانة البيت المسلم ، تحريم الخلوة بالأجنبية منعًا لوساوس الشيطان ، وإبعادًا لهواجس النفس الأمّارة بالسوء ، فقد جاء في الصحيحين « لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذى محرم » .

ومما حرص عليه الإسلام في هذا الصدد خلوة المرأة بأقارب زوجها كخلوتها بأخي زوجها أو بابن عمه أو ابن خاله . لما في ذلك من التساهل الذى يمكن أن يحدث من أهل القرابة ومثل أقارب الزوج أيضا أقارب المرأة ممن ليسوا محارم لها كابن عمها وابن خالها وابن عمتها وابن خالتها فليس لهم الخلوة بها ، يقول

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إياكم والدخول على النساء » ، فقال رجل من الأنصار يا رسول الله أفرأيت الحمو ؟ قال : « الحمو الموت » وهم أقارب المرأة . وليس الأمر قاصرا على ما يخشى حدوثه من فتنة بل لأن فى ذلك فتحا لنوافذ القيل والقال ـ وإثارة للشبه وألسنة السوء وما يترتب على ذلك أيضا مما لا تحمد عقباه ، وبما يترتب عليه تخريب البيوت .

ولقد ضرب لنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أروع الأمثلة على ذلك عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إحدى نسائه . فمرّ به رجل فدعاه وقال : يا فلان هذه زوجتى ، فقال : يا رسول الله من كنت أظن فيه فإنى لم أكن أظن فيك ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » .

وبهذا يعطى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه درسا من أقوى ما يكون فى دفع الشبهات وظن السوء حتى لا يتعلل أحدٌ ما كائناً من كان بأنه فوق الشبهات .

كما كان لموقف موسى عليه السلام من ابنة شعيب أثرهُ كذلك فى البعد عن مواطن الشبهات . وذلك عندما وجهت إليه دَعْوَةَ أبيها ، فطلب منها أن تسير خَلْفَه وأن تصفَ له الطريق ولم يكن هناك أدنى شك بين الطرفين فى نفسيهما . ولكنه الدين فى تعاليمه السامية . بُعْدًا عن الشبهات ومنعاً لإثارة الفتن والكلام ونَشْرًا للأدب العالى فى البيوت المؤمنة لتلتزم الجادّة والسير على المنهج الأمثل . ومن تشريعات المحافظة على البيت المسلم إلتزام المرأة المسلمة بزيها الإسلامى الذى يوافق شرع الله والذى يغطى جميع جسدها وألا يكون رقيقا ولا ضيقا . فقد جاء فى الحديث « أن من أهل النار نساء كاسيات عاريات مائلات مُميلات » . وقد دخلت نسوة من بنى تميم على عائشة رضى الله عنها وعليهن ثياب رقاق فقالت عائشة « إن كنتن مؤمنات فليس هذا بثياب المؤمنات » .

والإسلام بهذه التعاليم إنما يريد بناء بيت إسلامى يتسم بالعفة والطهارة والنقاء . وينأى عن الرذيلة والضلالة والمعاصى ما ظهر منها وما بطن .

دُرُوسٌ .. من حياة أمهات المؤمنين

فى حياة أمهات المؤمنين دروس غالية ونماذج مثالية للأمهات والزوجات يجب الوقوف عندها والإفادة منها فى بناء الأسرة المسلمة .

ولنبدأ بأولى أمهات المؤمنين :

هى السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصى القرشية الأسدية أم المؤمنين وزوج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى أول واحدة تزوجها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وأول من أسلم من النساء .

تزوجها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قبل الوحى وعمره حينئذ خمس وعشرون سنة وكان عمرها حينئذ أربعين سنة ، ومكثت معه أربعاً وعشرين سنة .

وكان سبب زواج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ منها ما جاء عن ابن اسحاق قال : كانت خديجة امرأة تاجرةً ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها تضاربهم إياه بشيء تجعل لهم منه . فلما بلغها عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه ، بعثت إليه وعرضت عليه أن يخرج فى مالها إلى الشام تاجرا ، وتعطيه أفضل مما كانت تعطى غيره من التجار ، مع غلام لها يقال له « ميسرة » ، فقبله منها وخرج فى مالها ومعه غلامها ميسرة حتى قدم الشام . فنزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى ظل شجرة قريبة من صومعة راهب فاطلع الراهب إلى ميسرة فقال : من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟ قال : هذا رجل من قريش من أهل الحرم . فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى ، ثم باع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سلعته التى خرج بها ، واشترى ما أراد ثم أقبل قافلاً إلى مكة ، فلما قدم على خديجة بمالها باعت ما جاء به فأضعف أو قريبا ، وحدثها ميسرة عن قول الراهب وكانت خديجة امرأة حازمة لبيبة شريفة مع ما أراد الله بها من كرامتها .

فلما أخبرها ميسرة بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له : إنى قد رغبت فيك لقرابتك منى وشرفك فى قومك وأمانتك عندهم وحسن

خلقك وصدق حديثك ثم عرضت عليه نفسها وكانت أوسط نساء قريش نسبا وأعظمهم شرفا وأكثرهم مالا ، فلما قالت لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ما قالت ذكر ذلك لأعمامه فخرج معه حمزة بن عبدالمطلب فكلم عمها ـ وقيل كلم أباها ولكن الصحيح أن أباها خويلد كان قد مات قبل ذلك .

وحضر وجهاء قريش وأشرافهم ورؤساؤهم يتقدمهم عمه أبو طالب فتكلم قائلا : الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضىء ـ أى أصل ـ معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا وجعلنا الحكام على الناس .. ثم أن ابن أخى هذا محمد بن عبدالله لا يوزن به رجل إلا رجح به فإن كان فى المال قُل ، فإن المال ظل زائل وأمر حائل . ومحمد من قد عرفتم قرابته ، وقد خطب خديجة بنت خويلد . وبذل لها من الصداق ما آجله وعاجله من مالى كذا ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطب جليل .

وكانت السيدة خديجة رضى الله تعالى عنها قد تزوجت قبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ برجلين هما : أبو هالة بن زرارة من بنى عدى وعتيق بن عائذ .

وكانت السيدة خديجة رضى الله عنها أول من آمنت من الرجال والنساء ، وصدقت بما جاء به رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . وقد رزقه الله تعالى منها أولاده : القاسم وهو الذى كان يكنى به ، وعبدالله ويقال له : الطيب والطاهر ، وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، وأما ولده إبراهيم فإنه كان من مارية القبطية التى أهداها له المقوقس . وقد عاش بنات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى دخلن الإسلام وهاجرن معه إلى المدينة المنورة .

وكان للسيدة خديجة رضوان الله تعالى عليها دورها الكبير فى حياة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لاسيما عندما جاءه الوحى ورجع من غار حراء يرجف فؤاده فدخل على خديجة رضى الله عنها فقال زملونى فزملوه ، حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسى فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبدا .. إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى ابن عم خديجة ، وكان امرءا تنصّر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب .. الخ القصة .

فترى أنها استنتجت بثاقب فكرها وحصافة عقلها ونقاء قلبها إن ما جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا الحق ، وأن ربه سبحانه وتعالى لا يخزيه أبدا واستدلت على ذلك بأمور هى بحق جماع مكارم الأخلاق وأمهات الفضائل وصنائع المعروف - صلة الرحم - ومساعدة من لا يستطيع أن يستقل بأمر نفسه وهو الكل وكسب المعدوم وإكرام الضيف والمعونة فى النوائب .

وهكذا نرى فى تصرفها وحسن منطقها واستنتاجها أعظم القدوة لنساء الإسلام اللائى يضطلعن بمهمات الأسرة ويعاون الأزواج على رسالة الحق والخير .

كانت أول من امن .. وصدق

لقد كان لأم المؤمنين خديجة رضى الله تعالى عنها دور هام فى الدعوة وفى حياة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، تصديقا له وتخفيفا عن نفسه وتثبيتا وأمانا واطمئنانا .

فكانت تمسح عن نفسه الكثير من الهموم التى كانت تواجهه وتهون عليه أمر الناس الذين كانوا يكذبونه ويردون عليه .

يقول ابن هشام : « وكانت أول من آمن بالله وبرسوله وصدق بما جاء به فخفف الله بذلك عن نبيه - صلى الله عليه وسلم - لا يسمع شيئا مما يكرهه من رد وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها تثبته وتخفف عليه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس رحمها الله » .

وفى هذا درس بليغ للأسرة المسلمة وللزوجة بصفة خاصّة أن تقوم برسالتها المنزلية خير قيام وأن تؤدى لزوجها ما ينبغى أن تقوم به من تقوية معنوياته وإزاحة القلق النفسى والهّم من حياته حتى يستطيع القيام بدوره على أتم وجه .

فلا تكون الزوجة مصدر قلق وإزعاج وخوف وتعب لزوجها بل عليها أن تقوم برعاية أسرتها وتوفير الراحة للأبناء وللزوج وللأسرة المسلمة خير أسوة بأمهات المؤمنين وبما كان لهن من دور عظيم .

ولقد كان للسيدة خديجة رضى الله تعالى عنها مكانتها العالية ومنزلتها وحسبها فضلا وشرفا ومكانة ورفعة سامية فى الدنيا والآخرة .

ما جاء عن ابن زرعة قال : سمعت أبا هريرة قال : أتى جبريل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها عز وجل ومنى وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب » .

والقصب : هو اللؤلؤ المجوف ـ والصخب ـ الصوت المختلط المرتفع : والنصب : التعب .

ففى هذا كله بشارة للسيدة خديجة رضى الله تعالى عنها بمكانة طيبة فى الجنة ، وبيت كريم فيها ، جزاء ما قدمت من إخلاص لله ولرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

عن عائشة قالت : ما غرت على نساء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا على خديجة وأنى لم أدركها ، قالت : وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا ذبح الشاة فيقول : ارسلوا بها إلى أصدقاء خديجة قالت : فأغضبته يوما فقلت : خديجة !! فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (إنى قد رزقت حبها) .

وفى هذا الحديث إشارة إلى أن حبها فضيلة .

وكان صلوات الله وسلامه عليه يكرم كل صديقة لخديجة وكان إذا ذبح الشاه فيقول ارسلوا بها إلى أصدقاء خديجة وفى هذا أو غيره دليل لحسن العهد ، وحفظ الودّ ورعاية حرمة الصاحب والعشير ، فى حياته وبعد مماته وإكرام أهل ذلك الصاحب أو الزوجة .

وفى هذا درس للأزواج أن يستوصوا بالنساء خيرا ، وأن يحفظوا لزوجاتهم حقوقهن ، وحرمتهن وعهدهن .

وقد توفيت رضى الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنين وكانت وفاتها فى رمضان وعندها خمس وستون سنة ودفنت بالحجون فى مكة المكرمة ، ونزل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حفرتها ولم تكن شرعت صلاة الجنازة ، فرحمها الله ورضى عنها وأرضاها .

القدوة المثلى .. فى العلم والعمل

ومن أمهات المؤمنين السيدة الفاضلة الكريمة عائشة بنت أبى بكر الصديق عبدالله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مره بن كعب بن

لؤى بن غالب ، وأمها هى أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية .

بنى بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعمرها تسع سنين وكانت نامية الجسم ودخل بها فى شهر شوال من السنة الأولى . ولم يتزوج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بكرا سواها .

وقد أراهُ الله تعالى إياها فى المنام مرتين كما ثبت فى السنة الصحيحة . قال - صلى الله عليه وسلم - لعائشة . أريتك فى المنام مرتين يحملك الملك فى سرقة من حرير فيقول هذه امرأتك فاكشف عنها فإذا هى أنت فأقول إن يكن هذا من عند الله يمضه . وعندما خطبها النبى - صلى الله عليه وسلم - من أبيها قال : إنما أنا أخوك فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - أنت أخى فى دين الله وكتابه وهى لى حلال .

وقد نشأت منذ باكورة صباها وفجر حياتها ، نشأة طاهرة مباركة وكبرت وترعرت فى منزل الوحى فكان طبيعيا أن تجمع كل المحامد الفاضلة والمعانى النبيلة ومكارم الأخلاق .

ولقد وهبها الله تعالى عقلا واعيا متفقها ، وذاكرة قوية حافظة ، فكانت عالمة بأحكام الشريعة حافظة للأحاديث مستوعبة لأمور الدين وأصوله وفروعه .

ولقد أخذ عنها الكثير من أحكام الشريعة ، ولاسيما ما كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يصنعه فى بيته ومع زوجاته .

يقول مسروق : رأيت مشيخة أصحاب محمد الأكابر يسألونها عن الفرائض .

وقال أبو موسى الأشعرى : ما أشكل علينا أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم قط شىء ، فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علما .

وقد جمعت رضى الله تعالى عنها بين الفقه والعلم وحسن القول والعمل ، يقول عطاء بن أبى رباح : كانت عائشة أفقه الناس وأعلم الناس وأحسن الناس رأيا فى العامة .

بيد أن علومها كانت كثيرة وثقافتها العامة كانت شاملة فاستوعبت فقه الأحكام ، والطب والشعر . قال هشام بن عروة عن أبيه : ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة .

وأسند الزبير بن بكار عن ابى الزناد قال : ما رأيت أحدًا أروى لشعر من عروة ، فقيل له ما أرواك قال : ما روايتى فى رواية عائشة ما كان ينزل بها شىء إلا أنشدت فيه شعرا .

وقد جمعت إلى جانب العلم الغزير العمل الصالح ، وكانت كريمة سخية ، تبذل كل ما تملكه ، وتعطى عطاء بلا حدود حتى ولو كانت فى حاجة ، إنها الأمثلة العالية فى الإنفاق وفى العطاء ، أخرج ابن سعد من طريق أم درة قالت : أتيت عائشة بمائة ألف ففرقتها ، وهى يومئذ صائمة فقالت لها . أما استطعت فيما أنفقت أن تشترى بدرهم لحما تفطرين عليه فقالت : لو كانت ذكرتنى .

وفيما رواه الإمام مسلم - فى صحيحه - عن القاسم بن محمد بن عائشة قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قلّ قال : وكانت عائشة إذا عملت العمل لزمته .

ولقد كانت السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها . عالمة متفقهة . ملمة بسنة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . . واعية لأحاديثه النبوية الشريفة . وهى من أكثر الصحابة رضوان الله تعالى عليهم - رواية للحديث النبوى الشريف .

روى لها عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ألفا حديث ومائتا حديث ، وعشرة أحاديث واتفق البخارى ومسلم منها على مائة وأربعة وسبعين حديثا وانفرد « البخارى » بأربعة وخمسين و« مسلم » بثمانية وستين .

ولا غرابة فى هذا العدد الجم الذى روته من الأحاديث فقد عاشت فى بيت النبوة وعايشت أندى لحظات الحياة فى جوار الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومع ومضات الإشراق الروحى . وعند غدوات الوحى وروحاته . . كانت تعيش سعيدة بما ترى واعية لما تسمع . .

وكان مسروق إذا روى عن عائشة قال : حدثتنى الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المبرأة من السماء رضى الله عنها .

ثم فهى الصديقة وأبوها الصديق رضى الله عنه وكانت لها مكانتها من رسول - صلى الله عليه وسلم - ونزلت براءتها من فوق سبع سماوات .

ولقد روت السيدة عائشة رضى الله عنها عن النبى - صلى الله عليه وسلم - الكثير الطيب وروت أيضا عن أبيها وعن عمر وفاطمة وسعد بن ابى وقاص وأسيد بن حضير وجذامة بنت وهب وحمزة بنت عمرو ، وروى عنها عمر وابنه عبدالله وأبو هريرة وأبو موسى وزيد بن خالد وابن عباس وربيعة بن عمرو الجرشى والسائب بن يزيد وصفية بنت شيبة وعبدالله بن عامر بن ربيعة وعبدالله بن الحارث بن نوفل وغيرهم من الصحابة .

ومن آل بيتها : اختها أم كلثوم وأخوها فى الرضاعة عوف ابن الحارث وابن أخيها القاسم وعبدالله ابن محمد بن أبى بكر وبنت أخيها الآخر حفصة وأسماء بنت عبدالرحمن بن أبى بكر وحفيده عبدالله بن أبى عتيق وابنا أختها عبدالله وعروة ابنا الزبير بن العوام وبنت أختها عائشة بنت طلحة .

ومن كبار التابعين : سعيد بن المسيب وعمرو بن ميمون وعلقمة بن قيس ومسروق وعبدالله بن حكمى والأسود بن يزيد وأبو سلمه بن عبدالرحمن وأبو دائل وآخرون كثيرون ولقد كان لها دور بالغ فى تبليغ الأحكام الشرعية لاسيما النساء جاءت امرأة من الأنصار تسأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كيف تتطهر من الحيض ؟ فقال : خذى فرصة من مسك فتتبعى بها أثر الدم ، فلم تفهم فاستحى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخذتها عائشة وعلمتها .

وتلك مهمة لها أكبر الأثر فى التبليغ والتعليم . إذ أن تعليم المرأة للمرأة وخاصة فى مثل هذه الأمور يكون أكثر ايضاحا وأبعد عن الحرج .

ومما يدل على كثرة علمها وفقهها ما قاله أبو موسى الأشعرى :

ماأشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها فيه علما وتوفيت سنة ثمان وخمسين فى ليلة الثلاثاء لسبع عشرات خلت من رمضان ، وقيل سنة سبع ودفنت فى البقيع رضى الله تعالى عنها وأرضاها .

الفهرس

فى ضوء السيرة النبوية ٥

- □ هكذا .. كان قدرها !! ٦
- □ فى الجاهليات .. القديمة !! ١١
- □ زوجات الرسول ١٨
- □ فى العلم .. والأدب ٢٩
- □ ماذا تفعل نساؤنا ؟ ٣٦

فى ضوء القرآن الكريم ٤٣

- □ من نفس .. واحدة ٤٤
- □ فى المجتمع الاسلامى .. الأول ٥٦
- □ حرية قبل الزواج .. وبعده ٦١
- □ المسئولية .. على قدم المساواة ! ٦٩
- □ المساواة والتفرقة .. للمصلحة ! ٧٤

فى ضوء السنة النبوية ٨٣

- □ قبل الاسلام !! ٨٤
- □ الأسرة .. دعامة المجتمع ٩١
- □ الزواج بين التحليل .. والتحريم ٩٩
- □ البيت الزوجى .. له أسرار !! ١٠٩
- □ دروس .. من حياة أمهات المؤمنين ١١٣

رقم الايداع : ٥٣٥٥ / ٩١

I.S.B.N

977 - 08 - 0137 - 0

هذا الكتاب ؟

إن علاقة الرجل بالمرأة ، وعلاقة المرأة بالرجل تحكمها الآية القرآنية الكريمة : ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ .

وعلاقة بهذا التمازج تكاد تجعل من الرجل والمرأة كيانا واحدا ، وشخصا واحدا ، الحقوق والواجبات متبادلة بينهما ، ليكون البيت شركة استثمارية ومؤسسة تربوية ..

ومن الخطأ الفادح تصور أحد الجنسين متميزا عن الآخر أو غريبا عنه أو دونه مكانة ، حتى فى مجال الحريات وفى مقدمتها الحرية الدينية ، فقد اباح الإسلام أن تبقى المرأة اليهودية والمسيحية على دينها وهى زوجة لرجل مسلم وأم لأولاده .

وحتى لا يشتط بعض الرجال فيحاولون هضم ما للمرأة من حقوق ، وحتى لا تختلط الأمور على بعض المترجلات من النساء فتتشابه الأمور عليهن ..

تقدم مؤسسة أخبار اليوم هذا الكتاب ، وهى ترجو أن يوفقها الله إلى الاسهام فى نشر الثقافة الإسلامية الرفيعة بين الجماهير العريضة التى تتطلع إلى العلم والمعرفة والنور .